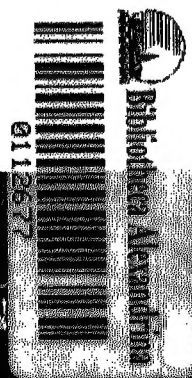




حنان قليل

نوال السعداوي



لاداب

هناں قایل

نوال السعداوى

حنان قابل

مَنشورات دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

القاهرة

الطبعة الثانية

١٩٨٦ - بيروت

الطبعة الثالثة

١٩٨٩ - بيروت



هنا فليل

كانت تجلس القرفصاء على بلاط الحمام البارد ، وجسمها
الضئيل الضامر ينتفض من البرد ، واسنانها تصطك ٠٠
وأخذت تتلفت حولها في الحمام الواسع مذهولة ٠٠ أهذا
هو الحمام ؟ ٠٠ لم تكن تتصور أنه يمكن أن يكون في العالم
حمام بهذا الشكل ، فإن الحمام الوحيد الذي رآته في حياتها
هو حمام العمدة ٠٠ وقد دخلته مرة واحدة صدفة حينما كانت
تلعب « المسافة » مع ابنة العمدة ، وابنة شيخ الغفر ودخلت
لتختفي في حجرة في آخر الدوار ، قالت عنها ابنة العمدة
إنها الحمام ٠٠ ورأت فيه طشتاً كبيراً ، وزيراً ، وفنطاساً
ضخماً في نهايته صنبور صغير ، ولم تكن قد رأت صنبوراً
قط في حياتها ، أو حماماً ٠٠ وكان كل ما رآته في دار أبيها
طشتاً وكوزاً من الصفيح تنقلهما أمها من قاعة الى قاعة كلما
رغب فرد من أفراد البيت في الاستحمام ٠٠ وكانت ترى أمها
تضع في هذا الطشت نفسه الدقيق لتنخله ، وفي موسم

الحصاد ترى الطشت مملوءا بالشعير ، وفي موسم « الذرة »
مملوءا « بالذرة » .

وتلقت حولها في دهشة ، ومسحت بطرف جلبابها عينيها
الملتهبتين وأنفها ، وأخذت تشمل ذلك الشيء الأبيض اللامع
الذى يشبه الحوض الواسع ، والذى لو ملئ بالماء لفرقت فيه
.. وتلك الصنابير الفضية الكبيرة التى تعلوه ..

ورأت حوضاً آخر صغيراً معلقاً في الحائط تعلوه ايضا
صنابير كبيرة براقه .. ورأت شيئاً عجيباً أبيض يشبه الكرسي
وليس بكرسي .. وشيئاً آخر يشبه سلطانية الشوربة ولكنه
كبير الحجم جداً يتسع لسائق جدي أو خروف ..
وكفكت دمعها وأخذت تتحسس بيديها السمراوين الحشنتين
أرض الحمام الملساء الناعمة في مثل نعومة الصحن المصنوع
من الخزف ..

- بت يا بهيّه .. يا بهيّه ..
جاءها صوت رفيع حادّ من خلال باب الحمام المغلق ..
فانتفضت لسماع اسمها .. ووقفت مذعورة حائرة .. ماذا
تفعل ..

أصبح الصوت الرفيع أكثر حدة فارتجفت بهيئة وهي
تمسك بأكرة الباب البراقة تحاول أن تلوّيهما لتفتح الباب ،
ولكن الأكرة أبت أن تتحرك فألصقت فيها بالباب وقالت
بأعلى صوتها كما كانت تنادى على أمّها في الحقل :
- ده أنا جوه فى الى اسمه ايه الحمام مش عارفه اطلع ..
ووقفت بهيئة مشدوهة حينما رأت أكرة الباب تتحرك
وحدها ثم ينفّث الباب .. ورأت أمامها امرأة بضّة نظيفة ..
ثم رأت يد المرأة ترتفع الى أعلى ، ثم تهوي على وجهها النحيل
في لكمة قوية ..

- انت قاعده جوه الحمام بتعمل ايه .. مين قالك تدخل
هنا ؟

- معملش يا ستى .. والنبي يا ستى .. ربنا يخليكي
يا ستى .. مش أنا والنبي .. ده الراجل عبده اللى عندكم
قال لى اقعدى هنا لغاية ماستك تنادى عليكى ..
وفهمت بهيئة منذ ذلك اليوم ما يجب في هذا البيت وما لا
يجب .. وما عليها أن تعمله وما لا تعمله .. ما هو محلل
وما هو محرم .. وكان يعمل معها في البيت نفسه طباخ
اسمه عبده يبيت في حجرته فوق السطح ، وفتاة أخرى
كبيرة تبيت معها على دكة خشبية في أحد أركان المطبخ ..
وانست بهيئة الى خديجه ، حتى راحت تروي لها كيف قتل
والدها .. وهما تتسليان بالحديث قبيل النوم .. ولكن
خديجة نفرت من الحديث خشية أن يطلع لها عفريت القتل
.. وفضلت أن تنام .. وسرعان ما كان شخيرها يملأ
المطبخ ..

وظلت عينا بهيئة مفتوحتين لا يغلبهما النعاس .. وراحت
تفكر في أمها ، وفي اختها الرضيع زينب .. وهمست
لنفسها « يا ترى يا أمه بتعمل ايه دى الوقت ؟ »
وعادت اليها صورة أبيها قبل مقتله بدقائق ، وهو يمسك
بيدها في السوق ، ويضرب بعصاه الأرض فى قوة وبأس ..
ووقفت عند هذه الصورة لا تجرؤ على الاسترسال في
ذكرياتها .. فلقد بدأت تشعر بالخوف لو أنها استعادت
صورة مقتله ، وتكورت بجانب خديجة ، والتصقت بها تريد
أن تلمس من دفنها بعض الطمانينة والأمن .. وأغمضت
عينيهما لتنام .. لكن صورة أمها بثيابها السوداء المتربة
وقامتها البحيلة وبشرتها الصفراء تجلس على عتبة الدار ،
وفي حجرها اختها زينب تمتص اللبن من ثديها الهزيل

الحصاد ترى الطشت مملوءا بالشعير ، وفي موسم « الذرة »
مملوءا « بالذرة » .

وتلفئت حولها في دهشة ، ومسحت بطرف جلبابها عينيها
الملتهبتين وأنفها ، وأخذت تشأمل ذلك الشيء الأبيض اللامع
الذي يشبه الحوض الواسع ، والذي لو ملئ بالماء لفرقت فيه
.. وتلك الصنابير الفضّية الكبيرة التي تعلوه ..

ورأت حوضاً آخر صغيراً معلقاً في الحائط تعلوه أيضاً
صنابير كبيرة بَرّاقة .. ورأت شيئاً عجيباً أبيض يشبه الكرسي
وليس بكرسي .. وشيئاً آخر يشبه سلطانية الشوربة ولكنه
كبير الحجم جداً يتسع لسدق جدي أو خروف ..
وكفكت دمعها وأخذت تتحسّس بيديها السمرالوين الحشنتين
أرض الحمام المساء الناعمة في مثل نعومة الصحن المصنوع
من الخزف ..

- بت يا بهيّة .. يا بهيّة ..
جاءها صوت رفيع حادّ من خلال باب الحمام المغلق ..
فانتفضت لسماع اسمها .. ووقفت مذعورة حائرة .. ماذا
تفعل ..

أصبح الصوت الرفيع أكثر حدّة فارتجفت بهيئة وهي
تمسك بأكرة الباب البراقة تحاول أن تلويها لتفتح الباب ،
ولكن الأكرة أبت أن تتحرّك فالصقت فمها بالباب وقالت
بأعلى صوتها كما كانت تنادى على أمّها في الحقل :
- ده أنا جوه فى الى اسمه ايه الحمام مش عارفه أطلع ..
ووقفت بهيئة مشدوّه حينما رأت أكرة الباب تتحرّك
وحدها ثم ينفّتح الباب .. ورأت أمامها امرأة بضّة نظيفة ..
ثم رأت يد المرأة ترتفع الى أعلى ، ثم تهوي على وجهها النحيل
في لطمة قوية ..

- انت قاعده جوه الحمام بتعمل ايه .. مين قالك تدخل هنا ؟

- معملش يا ستي .. والنبي يا ستي .. ربنا يخليكى يا ستي .. مش أنا والنبي .. ده الراجل عبده الى عندكم قال لى اقعدى هنا لغاية ماستك تنادى عليكى .. وفهمت بهيئة منذ ذلك اليوم ما يجب في هذا البيت وما لا يجب .. وما عليها أن تعمله وما لا تعمله .. ما هو محلل وما هو محرم .. وكان يعمل معها في البيت نفسه طباخ اسمه عبده يبيت في حجرته فوق السطح ، وفتاة أخرى كبيرة تبيت معها على دكة خشبية في أحد أركان المطبخ .. وأنست بيه الى خديجه ، حتى راحت تروي لها كيف قتل والدها .. وهما تتسليان بالحديث قبيل النوم .. ولكن خديجة نفرت من الحديث خشية أن يطلع لها عفريت القتل .. وفصلت أن تنام .. وسرعان ما كان شخيرها يملأ المطبخ ..

وظلّت عينا بهيئة مفتوحتين لا يغلّبهما النعاس .. وراحت تفكر في أمّها ، وفي أختها الرضيع زينب .. وهمست لنفسها « يا ترى يا أمّه بتعمل ايه دى الوقت ؟ » وعادت اليها صورة أبيها قبل مقتله بدقائق ، وهو يمسك بيدها في السوق ، ويضرب بعصاه الأرض فى قوة وبأس .. ووقفت عند هذه الصورة لا تجرؤ على الاسترسال في ذكرياتها .. فلقد بدأت تشعر بالخوف لو أنها استعادت

صورة مقتله ، وتكوّرت بجانب خديجة ، والتصقت بها تريد أن تلتصق من دفئها بعض الطمأنينة والأمن .. وأغمضت عينيها لتنام .. لكن صورة أمّها بشبابها السوداء المتربة وقامتها النحيلة وبشرتها الصفراء تجلس على عتبة الدار ، وفي حجرها أختها زينب تمتص اللبن من ثديها الهزيل

الضامر .. ورات نفسها تجلس الى جوارها تنبش في التراب
وهى تحس آلام الجوع اذ مضت ايام كثيرة لم تصب فيها الا
بعض كسرات من الخبز المقدد ، وقطعة خيار مخسلة عثرت
عليها في قاع « الزلعة » ..

وانتهت على رجل ، أفندي يقف أمام أمها ، ومعه نفوسة
تاجرة الفراح .. ولم تفهم كل الكلام الذى كانوا يقولونه ،
ولكنها التقطت كلمة « بهية » من بين كلامهم فأرهفت السمع
لترى ماذا يمكن أن يكون لها من شأن في هذا الحديث الجاد
مع هذا الأفندي النظيف ..

وسمعت الأفندي يقول :

- هي ستها كام ؟

فأجابت أمها :

- عشر سنين والنبى ..

فقال الرجل :

- ياه .. دى لسه صغيره قوى ..

فأجابت نفوسة :

- صغيرة ايه يا سى محمد .. دى لهلوبة في الشغل تمسح
وتفسل ، وتحمل المحروسة الصغيره ، دى بكره تعجبك وتبقى
عال قوى .. قومي يا بت يا بهية .. قومي بوسي ايد
ميمك ..

وقامت بهية .. إنها لا تستطيع الا أن تطيع بعد أن رأت
أمها تنكس رأسها دلالة على الموافقة ..

واخذها الأفندي معه .. وقبل ان تمضي معه استدارت الى
أمها الجالسة على عتبة الدار ، وفي حجرها اختها زينب قائلة :

- أقعدي بالعافيه يا امه .. خلّي بالك من زينب ..
وسمعت أمها تقول :

- الله يعافيكى يا بهية .. خلّي بالك من نفسك ..

ورأتها تمسح عينيها وأنفها بكّما ، فاستدارت مسرعة ،
وسارت في أثر الافندي ٠٠ وقلبا ينوء بثقل كبير ٠٠

وفتحت بهيّة عينيها في الصباح الباكر على صوت رفيع
حادّ يقول :

- بت يا بهيّة ٠٠ انت لسه ما صحيتيش ؟
فانتفضت بهيّة في فزع ٠٠ وفتحت عينيها ٠٠ وحينما
رأت المطبخ الواسع ، وموقد الغاز ، والثلاجة الكبيرة عرفت
أنها في مصر ٠٠ في بيت سيدها محمد أفندي الشهدي ٠٠
وليس في دارها بقرية كفر خناش ٠٠ وردّت :
- حاضر ياستي ٠٠ أنا صاحيه ٠٠
وانطلقت بهيّة الى سيدتها ٠٠ فوجدتها مضطجعة على
سريرها الوثير ، تحتضن طفلتها ، وترضعها من ثدي بضّ ،
صمين ٠٠

- انت يا بنت لسه نايمه ؟
- لا يا ستي أنا صاحيه من الصبح ٠٠
- خدي اللف دي اغسليلها في الحمام ، وانشريها في
البلكونة ٠٠ وبعدين تعالى بسرعة علشان تحلي نوسه ٠٠
- حاضر يا ستي ٠٠
وفي لمح البصر طارت بهية لتفعل ما امرته به سيدتها ٠٠
ثم حملت الطفلة الصغيرة على ذراعيها ، ووقفت تهدهدها .
- بس ياستي نوسه ٠٠ بس ٠٠ بس يا ستي نوسه
بس ٠٠ بس .
وكفّت الطفلة عن البكاء ، وأخذت بهيّة تتأمل وجهها ،
وعينيها ، وشفتيها ٠٠ فرأت أنها تشبه أختها زينب شهبها
غريبا ٠٠ وخيل لها أنها هي فاحتضنتها بحنان وقوّة الى
صدرها ، وقبّلتها ٠٠

ولم تكد ترفع وجهها عن الطفلة حتى انتفضت على الصوت
الرفيع الحادّ يقول غاضباً :

- انت بتبوسيتها يابت يا بهيّه ؟ عمى في عينك .. اياك
تانى مره تبوسيتها ، واللّا تقربى وشك من وشها كده ..
فاهمه ؟

وقبل أن تنطق بهية بحرف أحست بيد تهوى على وجهها
فى صفعة قوية ..

- حاضر يا ستى .. معلش يا ستى .. والنبي ياستى
حرمت ..

وابتعدت اليد عنها فهدأت دقات قلبها ، وانتظمت أنفاسها
.. وحملت الطفلة بين ذراعيها ، وهى تحاول أن تبعد وجهها
عنها بقدر ما تستطيع ..

وتأملت وجه الطفلة مرة أخرى .. فلم تر فيها أيّ شبه
بينها ، وبين أختها زينب .. ورأت في عيني الطفلة استعلاء
وقسوة يشبهان الاستعلاء والقسوة في عيني أمها . وشعرت
أنها تكره هذه الطفلة وتحقد عليها ..

أهكذا يكون جزاؤها ؟ إنها لم تفعل شيئاً ، لم تخطئ ،
لم تكسر كوباً أو طبقاً .. لقد قبلت الطفلة فحسب ، وقبلتها
لأنها تحبّها وتحنو عليها .. أهكذا يكون جزاء الحبّ والحنان؟
وأشاحت بوجهها بعيداً عن الطفلة وأخذت تهددها بالية
ليست فيها عاطفة .. وتذكرت أختها زينب .. ترى من
يهددها ؟ .. كثيراً ما كانت تسمع بكاءها وهي نائمة على
الأرض في صحن الدار ، وقد تعرّى ردفها ، وغشي التراب
أنفها وفمها ، فتجري إليها ، وتمسح وجهها ، وتهدهدها ،
وتقبلها ، وترعاها حتى تعود أمها من الحقل .
ترى من يجري إليها الآن .. ترى من يمسح لها التراب
من فوق أنفها وفمها ؟

ونظرت بهيـة الى وجه الطفلة التي تحملها ، وجه ناعم
نظيف بلا تراب ٠٠ وهي تهددها ، وتلاعبها كلما همت
بالبكاء ٠٠ أليست أختها زينب مثل هذه الطفلة ٠٠ ألا
تستحق أختها هذا الحنان ؟

ويصفعونها بعد كل ذلك لأن في قلبها حنانا !
وأحسّت بهيـة ، طفلة العاشرة ، بثورة عارمة تضطرم في
أعماقها ٠٠ ولم تشعر إلا وهي تضع الطفلة على السرير ،
وقد غمرها شعور بأنها لا تريد أن تحملها بين ذراعيها ٠٠
ووقفت بجوار الطفلة كالتمثال تنظر اليها في كراهية ٠٠
وبكت الطفلة تريد أن تحمل ٠٠

وكانت أمها في الحمام ٠٠ فنادت على بهيـة بأعلى صوتها :
- نوسه بتعيط ليه يا بنت يا بهيـة ؟
ولم ترد بهيـة ، واقتربت من الطفلة ، وأخذت تربّت عليها
لتكفّ عن البكاء ٠٠ لكن الطفلة التي كانت قد تعودت أن
تحمل ظلت تبكي وتصرخ ٠٠
وجاءها الصوت الرفيع الحادّ الغاضب :
- نوسه بتعيط ليه يا بنت ؟

واغتاطت بهيـة ٠٠ ممن ؟ لم تكن تدري ٠٠ إمن الأم
القاسية ، التي تناديها غاضبة ٠٠ أم من الطفلة المدللة التي
تريد أن تحمل ؟ ولم تعرف تماماً ماذا فعلت ٠٠ لكنها رفعت
يدها في الهواء وهوت بها على وجه الطفلة في لكمة قوية ٠٠
ثم جرت الى باب الشقة وفتحته ، وانطلقت في الشارع تعدو .
ولم تهدأ بهيـة الا بعد أن ابتعدت عن بيت سيدها كثيرا ٠٠
ورأت رجلاً تبدو على ملامحه الطيبة ، فسألته عن
« الكافوري » الذي يمكن أن يوصلها الى قرية كفر خناش ٠٠
وكان الرجل طيباً فدّلها على الطريق ٠٠ وأعطّاها بعض
القروش ٠٠

وجلست بهيئة على أرض « الكافورى » فقد أبى الكمسارى
أن يمنحها كرسياً لتجلس عليه ، لأن القروش التي كانت
معه لم تكف لتصرف بها نصف تذكرة .. وتبرّع لها
الكمسارى بحيز صغير من أرض العربة حتى تصل الى
قريتها ..

ووقفت العربة فى « كفر خناش » .
وانتفضت بهيئة واقفة على قدميها .. وقفزت من العربة ،
ووضعت ذيل جلبابها بين أسنانها وأطلقت ساقها للريح .
وجدت باب الدار مفتوحاً كعادته دائماً .. فاندفعت
داخله متلهفة .. وقبل أن تصل الى صحن الدار سمعت صوت
أختها زينب تبكي بحرقة .. فجرت اليها .. وراها كما
كانت تراها دائماً عارية الردفين ، والتراب يغشى أنفها
وشفتيها ..

- يا حبيبتى يا زينب !

وأخذتها بين ذراعيها ، وراحت تغمر وجهها بالقبلات ..
وتدهدت بهيئة فى سعادة .. إنها تستطيع أن تحبّ زينب كما
تريد ، وتحنو عليها كما تريد .. وتقبلها كما تريد .. لن
ينهرها أحد ولن تتلقّى عن ذلك صفعات أو شتائم ..

وضمّت بهيئة أختها الى صدرها أكثر وأكثر .. وحينما
رأت أمّها تدخل من باب الدار قالت لها :

- ماهانتش عليّ زينب يا امه .. قلت آجى أشيلها ..

وأجابت أمّها والدموع فى عينيها :

- برکه يا بنتى إليّ جيّتى ..



كرامة

كان عقلي مشلولاً لا يريد أن يفكر .. بل لا يستطيع أن يفكر حتى لو أراد .. وكانت نفسيّتي منهارة مهلهلة ، فتأتها هنا وهناك في ثنايا أعماقي الخالكة فلا أهندي الى شيء منها .

ولم أكن أحسن شيئاً إلاّ قدمي المنهوكتين وهما تنتقلان بلا وعي في خطوات ممزّقة ضالّة .. وبعد أن همت في طرقات عديدة لا أكاد أتبينها وجدتني فجأة أمام بابه .. باب مكتبه .. وقرأت اسمه على الرقعة النحاسيّة الصفراء .. فارتجفت .. وهممت أن أستدير ، وأعود من حيث أتيت ، فلم أستطع .. وقفت أحملق كالمعتوهة في حروف اسمه :

« ضياء الدين توفيق ا » آه .. إنه اسمه .. إنه هو .. إنه مكتبه ا .. باب مكتبه نفسه الذي شهد خروجنا ودخولنا كل يوم لمدة خمس سنوات كاملة .. وكثيراً ما كنا نقف أمام هذا الباب في الظلام ، وياخذني بين ذراعيه ويقبّلني ، وتترأى لي الرقعة النحاسيّة وعليها اسمه ، وكأنها تهتز من غرط السعادة والنشوة ، وتتراقص حروف اسمه وتضيء بنور

جميل فاهمس له قائلة : ضياء .. احبك ! .. خمس سنوات
كاملة ، بأيامها ولياليها ، احبته .. وعشت لحظات عمري
معه سواء كنا معاً أو فصلت بيننا آلاف الاميال حينما كان
يسافر ، وكثيراً ما كان يسافر في بعثاته الصحفية ..
ثم .. آه .. لعلمي انسى !

كان اليوم منذ سنتين .. صباح اليوم الذى كنت استلقي
فيه على فراشى ، وأثناء ، واستعيد في سعادة كلماته
الرقيقة لى ، وأتحدث موضع شفثيه الملهتهتين على وجهي ..
وأخذت أقلب صفحات جريدة الصباح في تكاسل لذيذ ..

وفجأة خارت قواي .. وتوقف قلبي عن ضرباته ..
وأخذت أذناي تصفران إصغيراً عالياً جعلنى صمّاء .. واهتزّت
الكلمات السوداء المطبوعة أمام عيني لكنى استطعت أن أقرأها
مرة ومرتين وثلاثاً ، وأنا لا أحسن بنفسى .. وكأنني فى
حلم ..

وقرات للمرة العشرين خبر زواجه وأنا لا أصدق ..
وظننته رجلاً آخر يحمل اسمه .. وجريت كالمسبوعة الى
التليفون ، وقالت لى شقيقته في سخرية لا تخلو من مزيج
من الشفقة والتشفي :

- أيوه .. ضياء .. إنه فى بيته يا « شوقيه » .. لقد
تزوج .. ألم تعرفي ذلك ؟
وكانت بي بقية حياة ، فاستطعت أن اردّ عليها قائلة :
- أشكرك ..

ولكن .. مابالى أقف بعد سنتين من البعد عنه كالمعتوهة
إمام باب مكتبه .. لا أستطيع الدخول .. ولا أستطيع
العودة ؟ .. آه .. ليت قلبي يتوقف الآن تماماً فاموت وأقع
جثة هامدة هنا حتى يتعثّر بجثتي وهو خارج فيراني ! ويرى
ماذا فعل بي ،

ووقفت أمام اللوحة النحاسية التي تحمل اسمه أفكر ،
ولا أفكر .. وقلت لنفسي في جراءة الضعيف الذي يريد أن
يمنح نفسه بعض الشجاعة :

- فلأدخل .. ماذا سيحدث ؟ هل ستنطبق السماء على
الأرض ! .. لن يحدث شيء .. سوف يقابلني بفتور غاية ما
في الأمر ، أو سوف يقابلني بحرارة أكثر ما في الأمر ..
ولن يكون هناك فارق كبير عندي بين هذا وذاك .. فلقد
انتهى ضياع من حياتي ، وخرج من نطاق آمالي وأحلامي ..
لكنني أريد أن أراه .. أريد أن أنظر في عينيه ، وليكن
ما يكون .. فهو الوحيد الذي أحبه .. وهو الوحيد الذي
يفهمني .. وتذكرت كرامتي التي منعتني من لقائه طوال
هاتين السنتين ..

ولكن اليوم ، بل هذه اللحظة ، لا أستطيع أن أراه .. ولا
أرى دخلا للكرامة في ذلك .. فانا لا أريد أن أتزوج ، فهو
رجل متزوج .. وإن لم يكن متزوجاً فلسـت أفكر في الزواج
منه ..

أنا لا أريد منه سوى أن أراه .. وأحادثه .. ودفعت
الباب برفق ، واخترقت الدهليز الطويل الذي يقود الى حجرته
.. ورأيت باب حجرته مغلقاً فائنابني اليأس .. لكنّ الأمل
دفعني الى أن أدفع بابه فانفتح ، وخفق قلبي بشدة كأنني
مقدمة على عمل جليل ، وليست مجرد زيارة قصيرة لدقائق ..
ورأيتـه جالساً الى مكتبه فاشتدت خفقات قلبي ، ورفـع
رأسه من فوق الأوراق المتراكمة على مكتبه .. ورأني .. وظل
برهة قصيرة محدقاً فيّ وأنا واقفة على عتبة الباب لا أستطيع
أن ادخل ، ولا أن أخرج كأنما شلت قدماي .. ثم أفاق
لنفسه ، وسمعته يقول وهو يقف ويقبل نحوي باسمي :
- اهلاً شوقيه .. اتفضلي ..

وتحرّكت نحوه في بطنه وأنا لا أدري تماماً بكيانى ..
واقتربنا من منتصف الحجرة ، ولم يكن يفصلنى عنه الا خطوة
واحدة .. ورأيت يده الى .. ورفعت يدي لأصافحه ..
فاحسست بها ثقيلة كأنها نصف مشلولة واستقرت يدي في
يده برهة قصيرة احسست فيها بكل عواطفى القديمة تنقد
فجأة .. ولم أستطع .. وجهدتني من حيث لا أدري بين
ذراعيه وفي احضانه ، رأسي على صدره العريض ، وشفته
الداثتان تلثمان كل جزء من وجهي وشعري .. ودموعي
تبطل وجهي ..

وأفقت لنفسي بعد لحظة .. آه .. ما هذا الذي فعلت ..
وسحبت نفسي منه شيئاً فشيئاً ، وابتعدت عنه ، وجلست
على كرسي رأيت أمامي وجلس هو الى جوارى .. وقلت بعد
فترة صمت في صوت ضعيف ممزق :

- ضياء .. أنا آسفة لأنني أتيت اليك اليوم ، لكنني
تلقيت صدمة ثانية من « رءوف » .. و ..
وقاطعني قائلاً :

- رءوف ؟ من هو رءوف ؟

- رجل .. مثل كل الرجال .. عرفته صدفة بعد أيام
من قراءتي لحبر زواجك ، وكنت يائسة مغضبة مصدومة ..
وكان رقيقاً مهذباً لطيفاً .. ورحبت بصداقته .. ثم حبّه .
الحق أنني لم أحبه يا ضياء ، لكنني كنت في حاجة الى أي أحد ،
رجل أو امرأة .. ليسرّي عني .. ليحدثني . ليملا الفراغ
الذي خلفه فراقك في حياتي ..

وكان رءوف رقيقاً حنوناً ، وكنت في حاجة الى الرقة
والحنان .. وأحبّني ، أو هكذا قال .. ولم أنفذ الى أعماقه ،
لأعرف هل هو صادق أم كاذب .. ماذا كان يهمني من
أعماقه ؟ فليكن ما يكون ، كاذباً أو صادقاً ، فانا لا أريد منه

الا أن يظهر لي الحبّ .. أن يعاملني برفق .. أن يحنو عليّ
ساعة لقائي به وكفى .. لا أريد أكثر من ذلك شيئاً .
لقد علمتني صدمتي فيك أن أقنع باليسير .. أن أكتفي
بالمظاهر ولا أنبش في الأعماق .. بل أهرب منها حتى لا
تصدمني حقيقة أخرى .. وقلت لنفسي فلاحول أن أعيش
في سعادة كاذبة على أن أعيش في واقع صادق مؤلم ..
ولكن لم أستطع يا ضياء .. لم أستطع أن أغشّي نفسي
طويلاً .. سرعان ما أفقت لنفسي ، أو أفاق هو لنفسه ..
ولعله كان أيضاً هارباً مثلي من صدمة ، ويكتفي مني بظاهري
ولا يبحث عن أعماقي .. أو لعله كان يريد أن ينسى بي حباً
قديمًا كما كنت أفعل .. ومثل هذه الأشياء لا تدوم طويلاً
يا ضياء ..

وكان ضياء يجلس الى جوارى .. يستمع اليّ وفي عينيه
ألم بليخ .. وأحسست بسعادة خفية حينما لمحت الألم في
عينيه .. لم أدر لماذا ؟ لكنني شعرت أنه كان يحسّ ، وأنا
أتكلم ، أنه المسئول عما حدث وأنه سبب شقائي ..
ضياء يتألم !! ومن أجلي ؟!

هذا هو ضياء كما عرفته ، وكما أحببته .. وهذه هي
نظرة الألم في عينيه من أجلي لم تتغيّر ولم تتبدّل .. كانه لم
يصدمني أبداً .. كانه لم يهجرني أبداً .. كانه لم يتزوج امرأة
غيري !

ولم أعاتبه .. بل لم أفكر في أن أعاتبه ، رغم أنني كنت
أنوي ذلك في أول لقاء لي بعد زواجه .. لكنني نسيت أنه خان
عهدي ، أحسست من نظرة الألم في عينيه أنه إنسان صادق ،
أنه لا يستطيع أن يخدع أحداً ، لا شك أنه أجبر على الزواج
إجباراً ، ولعل وراء ذلك سبباً لا أعرفه ..
وعاد اليّ حبيّ القديم له دفعة واحدة .. ورآه في عيني ..

فهو يفهم نظراتي . وقلت له :

- ضياء .. إنك رجل فاضل .. أفضل رجل عرفته .
إنك إنسان نبيل ، أنبل إنسان عرفته ..
كيف قلت له ذلك ؟ لم أدر ..

أفضل رجل ! أنبل رجل ! كيف ؟ .. هو الذي لفظني
كالنواة ، وتزوج امرأة غيري دون أن يطلعني على الخبر !
لم أعرف كيف قلت له ذلك .. لكنني أحسست في عينيه
الصدق ، والفضيلة ، والنبيل ، وأحسست في لمسات يديه
العاطفة الحقيقية التي لاتعرف الزيف أو الكذب ..
ومضى وقت الزيارة سريعاً .. ولم أشعر إلا وأنا أقف
وأقول له :

- طيب يا ضياء ، أشكرك على حسن استقبالك لي ، وأرجو
لك حياة سعيدة ..
ومددت له يدي لأنصرف ، وظلّ مسكاً بها بعض الوقت ،
ثم قبلها أصبعا أصبعا ، كما تعود أن يفعل طوال سنيّ حبنا
.. وقال لي :

- شوقية .. هل سارك مرة ثانية ؟

- طبعاً ..

- متى ؟

- قريباً جداً ..

وهيمت بأن أخطو نحو الباب ، لكنني تذكرت شيئاً فجأة
فقلت له :

- على فكرة .. ما رأيك في الزواج بعد أن تزوجت ؟

هل أنت راضٍ عنه ؟

ولم يردّ بسرعة .. ولم يبتسم كعادته .. أخذ يفكر برهة
قبل أن يجيب ، وأحسست من تردده أنه يحاول أن يغيّر
شيئاً مما كان يريد أن يقوله ، واشفقت عليه من أن يقول ما

يريد .. وأشفقت على نفسي من سماع ما سيقوله .. فقلت له
بسرعة :

- لا تفكر كثيراً يا ضياء ، فانا لا أريد أن اسمع الردّ ايّاً كان
.. سأحاول أن أراك مرة أخرى ..

وخرجت مسرعة .. خرجت أعدو كأنما ورائي شبح يطاردني
.. وواصلت عدوي حتى وصلت الى بيتي ، وجريت الى حجرتي
الهِث وأغلقتها على نفسي .. آه .. ماهذا الذي فعلت ؟
وتقلّبت في فراشي .. ثورة عارمة تجتاح نفسي .. ليست
ثورة على ضياء ، وليست ثورة على رءوف ، وليست ثورة على
أحد .. وانما ثورة على نفسي .. وسمعت كلمة تتردد في

أعماقي ..

كرامة !

كرامة ! .. تلك الكلمة التي ترنّ فجأة في أعماقي وتحاسبني
بلا رحمة ولا شفقة .. ضياء ؟ .. مرة أخرى ضياء ؟ تذهبين
اليه ! الرجل الذي خان عهدك .. الرجل الذي أحبّك خمس
سنوات ، ثم تزوّج امرأة أخرى في يوم وليلة ؟ ثم تنهوين
بين ذراعيه ، وتذرفين الدموع بين يديه ، وتقولين له أحبك ،
وتتركين له شفّتيك مرة أخرى ؟ ..

ثم تعترفين له بما كان بينك وبين رءوف ؟
ما هذا الذي فعلت ؟

وأحسست بضغط شديد في رأسي ، كأنما يوشك أن
ينفجر .. وتقلّبت في الفراش أبحث عن شيء من الراحة
ووضعت الوسادة على رأسي ، وضغطت عليها بكل قوتي لأوقف
هذا السيل المتدفّق من الأفكار .. لكن رأسي ظلّ مشحوناً
مضغوطة ..

وفجأة دقّ جرس التليفون .. فرفعت السماعة الى أذني في
إعياء .. وجاءني صوته نفسه .. ضياء ! الصوت الذي كان
يحدثني كلّ يوم خمس سنوات متتالية .. كيف أنساه ! ..

الصوت العميق الدافئ الخاني الذي كان متلهفاً دائماً .. كيف
أنساه ! .. وقال بنفس صوته القديم :

- شوقية .. أريد أن أقابلك الليلة .. لقد خرجت مسرعة
فلم أقل لك كل ما أريد .. هل أستطيع أن أراك الليلة ؟
وسكت قليلاً لأفكر .. وكنت في حاجة الى شيء يريحني
من عذابتي .. ويخمد تلك الكلمة التي تتردد في أعماقي ؛
كرامة ! .. تلك الكلمة القوية الطاغية التي تسحقني سحقاً
.. كرامة !

وأردت أن أخفف رأسي من ثقله ، وقلبي من لوعته ، فقلت
له وأنا أستعين بكل ما في نفسي من شجاعة وقوة :
- اني آسفة يا ضياء ، لا أستطيع أن أراك مرة أخرى ..
ووضعت السماعة في مكانها ، وعدت الى فراشي خفيفة ،
كأنما فقدت نصف وزني .. ووضعت رأسي على الوسادة ..
رأس هادئ مستقر .. وبحث عن تلك الكلمة الجبارة التي
ترن في أعماقي فلم أجدها .. لا أدري أين اختبأت مني ..
وابتسمت لنفسي في زهو وانتصار وقلت :
- جبانة ! جبانة تلك الكلمة التي اسمها كرامة !

الطريق

- لا أريد أن تحبني .. أرجوك .. أنا لست فاضلة كما
تظن ..

قالت هذه الكلمات ، وهي تجلس معه على شاطئ النيل ،
وتفصل بينهما مائدة صغيرة عليها زجاجة بيرة مثلجة وكوبان
فارغان ، وطبق مشهيات « أورديفر » كبير .

ولم يرفع عينيه اليها .. مَدَّ يده الى زجاجة البيرة ، وملا
الكوبين ، ثم ناولها واحداً ، وأخذ لنفسه الآخر .. وقال وهو
ينظر في عينيه .. ويقرب كوبه من كوبها « في صحتك ..
وسعادتك » .. وصمت قليلا ثم قال :

- سعادتنا ..

وقربت « ليلي » الكوب من شفتيها وأخذت برشفة .. وسرت
البيرة المثلجة في جوفها الساخن فأنعشتها ، وبددت شيئاً من
ذلك الوجوم الذي كان يملأ نفسها .. والتفتت ناحية النيل
وهامت نظراتها الشاردة علي صفحته السوداء الرقيقة ، وهي
تمر بين صفتين طويلين متقطعين من النور الأخضر الفاتح اصف
فوقها ثابت واضح ، وصفت تحتها يهتز ويتعرج كلما هبت
نسمة رقيقة .. وتمطت .. وتنفست .. وابتسمت .. ثم
قالت :

- إننى أحبّ الليل .
قال وهو ينظر فى عينيها :
- وأنا أحبّك أنت !
وضحكت . . ومالت برأسها الى الوراء . . وعاد يقول لها :
- أهكذا أصبح الحبّ عندك مهزلة ؟
وضحكت مرة ثانية ، حتى دمعت عيناها ، وكساهما بريق
شديد جعلهما يشعان فى الليل كفضّين من الماس . .
وشاركها الضحك ، وهو يقاوم فى نفسه رغبة ، لو أطاعها
لقام من مكانه ، وذهب اليها ، حيث تجلس وأخذ رأسها
الصغير بين يديه ، وقبل كلّ جزء فى وجهها . . حتى عينيها .
وبعد فترة صمت طويلة قالت له وهى تثبت فصّيتها الماسيّين
فى مكر :

- وماذا أصبح الحبّ عندك بعد حياتك العريضة المليئة
بالتجارب ؟
وشردت نظراته بعيداً فى الليل ، وهو يداعب شفتيه السفلى
بأسنانه ، وتعبث أصابعه الطويلة بشعر رأسه القصير . . ثم
قال بعد فترة وهو ينظر اليها نظرة عميقة جادّة نفذت الى
أعماقها :

- أصبح كلّ شيء . .
- تعنى أننى كلّ شيء لك الآن ؟
- بكلّ تأكيد . .
- إذن فانت تعرض علىّ الزواج . .
- بكلّ تأكيد . .
- هل أنت جاد ؟
- كل الجلّة . .
- انت رجل جريء جداً . .
- لماذا ؟ إنّ معظم الرجال يتزوّجون . .

- إنَّ الرجل الغيبيّ هو الذى يتزوَّج .. والرجل الذكيّ يتزوَّج فى لحظة غياب ..

وضحك .. وفرد جسمه الطويل فى استرخاء ، وأسند رأسه الى ظهر الكرسي . ثم قال بعد فترة صمت قصيرة ، وهو معلق بصره الى السماء :

- ماذا كنت تقصدين بأنك لست فاضلة ؟

- أننى لست فاضلة ..

- ماذا تعنين ؟

- إننى لا أومن بالحبّ .. إنَّ الحبّ هو الفضيلة الوحيدة فى هذه الحياة، ولكن الرجل والمرأة لا يلتقيان أبداً عند هذه الفضيلة ..

- كيف ؟

- المرأة التى تؤمن بالحبّ تقابل رجلاً لا يؤمن بالحبّ ..
وحيثما يؤمن الرجل بالحبّ يقابل امرأة لا تؤمن بالحبّ ..
- لماذا ؟

- لأن المرأة تبدأ الطريق وهى مؤمنة بالحبّ .. ثم تفقد هذه الفضيلة فى نهاية الطريق .. والرجل بالعكس ، يبدأ بلا فضيلة .. ثم يجدها فى نهاية الطريق .

- وكيف يكون اللقاء بينهما إذن ؟

وتوقفت أناملها عن دقّ المائدة .. وحولت عينيها عن السماء الى الماء ، وظلّت تنظر فى البحر الغارق فى الظلام فترة ثم قالت :

- حينما تقابل امرأة فى أوّل الطريق رجلاً فى نهاية الطريق يصبح الاثنان واحداً ويتزوَّجان .. وحينما تقابل امرأة فى نهاية الطريق رجلاً فى أوّل الطريق يبقى الاثنان اثنين ، وقد يتزوَّجان .. وقد لا يتزوَّجان .. وحينما تقابل امرأة فى أوّل الطريق رجلاً فى أوّل الطريق يصبح الاثنان ثلاثة ولا يتزوَّجان .

- وحينما تقابل امرأة في نهاية الطريق رجلاً في نهاية الطريق أيضاً ماذا يفعلان ؟
وسكنت لتفكر ٠٠ وثبتت عينيها على كوب البيرة الثلجة ،
وقد تكثفت عليه قطرات صغيرة من الماء ٠٠ وأمسكت الكوب ،
وأخذت رشفة ٠٠ ثم نظرت إليه ، وابتسمت ، ثم قالت :
- يشربان البيرة فقط ٠٠
وطافت نظراته على صفحة النيل الهادئة وقال وهو يمسك
ذقنه بيده :
- وما طول هذا الطريق ؟
- ليس له طول ثابت ٠٠ قد يكون سنة واحدة ، وقد يكون
عشرين سنة ٠٠ وقد يكون العمر كله !!
ونظر اليها في مكر وقال :
- وكم كان طول طريقك ؟
- ست سنوات ٠٠ وأنت ؟
- لا أعرف ٠٠ إنني لست فاضلاً بعد !
وضحك في مرح ٠٠ وشاركها الضحك ، ورفع كل منهما
كوبه الى لمة ٠٠
ثم قالت ومازالت الابتسامة تضيء وجهها :
- إذن فقد سبقتك ٠٠
- إنني أحب المرأة التي تسبقني ٠٠
- حتى ولو كانت غير فاضلة ٠٠
- إنني أحب المرأة التي تقول عن نفسها ، إنها ليست
فاضلة ٠٠
- ولكني لا أقول فحسب ٠٠ إنني فعلاً كذلك .
- هذه الصراحة تعجبني ٠٠
- ولكنّها ليست صراحة ٠٠ إنّها الحقيقة المرّة !
- ولماذا مرّة ! ٠٠ إنني أحسّ في هذه اللحظة أنّك أفضل
نساء العالم !

— أوه ! .. عجيب هذا المخلوق الذى اسمه رجل ! .. حينما
تقول له المرأة إنها فاضلة لا يصدّقها أيضا ..
— لأنّ المرأة تقول دائما عكس ما بها ..
— لكنتى لا أشارك النساء هذه الصفة .. أقسم لك إننى
لست فاضلة .. أرجوك صدّقنى !
— لا أستطيع أن أصدّقك ..
— لماذا ؟
— إنّ امرأة مثلك لا يمكن إلّا أن تكون فاضلة !
— بل لأن الحقيقة اذا صدرت من صاحبها لا يصدّقها الناس.
ووضع سيجارتين بين شفّتيه .. واشعلهما وناولهما
احداهما .. واخذ كلّ منهما ينفث دخانه فى الهواء صامتا ..
شاردا .. ثم مرّق السكون صوته العميق الهادى :

— ماذا قلت ؟
— عن أىّ شيء ؟
— عن الزواج ..
— أىّ زواج ؟
— زواجنا ..
— ولماذا تريد أن تتزوّجنى .. ؟
— لأننى أحبّك ..
— وهل الحبّ عندك يعنى الزواج ؟
واعتمد على كرسيّه وارتمت على وجهه أمارات الجدّ الصارم
وقال :
— لا .. لا .. لا .. لا .. الحبّ شيء ضخم جدّا .. والزواج شيء
تافه جدّا .. ولكن لا غنى للشيء الضخم عن الشيء التافه ..
الحبّ بلا زواج يعيش .. يعيش بقوة .. ويموت بقوة ..
شهادة وفاة واحدة تقضى عليه .. ولكن الحبّ مع الزواج لا يموت
.. شهادة ميلاد واحدة تضمن له الحياة أبدا ..

- تقصد الولد ..
- إنه سر الحياة ..
- لم يعد سرّاً مادمت قد بحثت به ..
- وضحكا .. وقال وهو ينظر الى أسنانها :
- إننى أحبّ ضحكك .. كأنما أرى فيها الدنيا بشمسها
- وقمرها ، وهوائها ، ومائها ، ونهارها ، وليلها ، ودفتها وبردها
- .. إنك تعبرين عن الحياة تعبيراً صادقاً بهذه الضحكة الطبيعية
- السهلة .. إننى أحبّ الحياة حينما تضحكين .
- بدأت أظنّ أنك ستتنظم شعراً فى يوم ما ..
- ربّما ..
- إذن فأنت تغريّني على عدم قبول الزواج ..
- لماذا ؟
- لأن الشاعر يقع فى حبّ كل النساء ما عدا زوجته ..
- الشاعر فقط ؟ ..
- وضحكت .. ومالت برأسها الى الوراء .. وأخذ يدها من
- فوق المائدة وقربها من شفّتيه ، وقبلها ثم قال :
- هل وافقت ؟
- هل وافقت أنت ؟
- على أيّ شيء ؟
- على نقائصي !
- كل منّا له نقائصه ..
- ولكنّى لا أوّمن بالحبّ ..
- ونظرت اليه وسحبت يدها من يده ثم قالت :
- ولكنّى قد أملتّ الحياة معك .. فانا بطبعي سريعة الملل .
- لن تمليّ معي الحياة أبداً ..
- إنك مغرور جداً ..
- لست مغروراً .. ولكنّها الحقيقة التى لا يصدقها الناس

إذا صدرت من صاحبها ..
وضحكت .. ثم قالت وهي تثبت فصيصها الماسيين في
عينيه :
- بل إنها الكذبة التي اصدقها .. أو التي اريد أن
اصدقها ..
وضحكا .. واخذ يديها الصغيرتين في يديه .. وقبلهما ،
وقال لها في صوته العميق الدافئ :
- يا زوجتي العزيزة ..
ونظرت اليه في دهشة وقالت :
- بهذه السرعة ؟
قال وهو ينهض واقفا :
- أي سرعة ؟ ..
لقد ضيعنا وقتا طويلا في الطريق !!



الكوافير سوسو

كانت أصابعه الحشنة بعظامها العريضة البارزة وجلدها الاسمر الجاف تبدو نشارا بين خصلات الشعر الذهبي الناعم ، تجمع بعضها وتفترق بعضها ، تلف بعضها وتفتك بعضها ٠٠ تنتقل في سهولة ويسر بحركات فنية خفيفة رغم شكلها الغليظ الثقيل الذي يوحى للرأى أنها لم تخلق لتمسك مشطا أو دبوساً وإنما لتقبض على فأس أو ساطور ٠٠ والشعر الذهبي بينها طيع مستكين ، ينهدل تارة وينتصب تارة ، يتفرق ويتجمع ٠٠ وينثنى وينفرد ٠٠ حتى يتخذ في النهاية شكلا أخيرا وكأنه أصبح شعرا غير الشعر ، فيه موجات جديدة بعضها يذهب الى اليسار وبعضها ينحرف الى اليمين ، فيه خصلة بيضاء ، وخصلة رمادية ، وخصلة كستنائية ٠ وتتقلص الأصابع الغليظة متكوّرة محترسة تسويه من بعيد ، وتحتسب الشعرات الرفيعة النافرة تضمتها الى أخواتها وتعيد بلمساتها الخفيفة نظرة واثنتين وثلاثا على الشكل الأخير

٠٠ مرّة من بعيد ٠٠ ومرّة من قريب ، من اليمين ومن الشمال
ومن الخلف ومن الأمام ٠٠ حتى تطمئنّ اطمئنانا كاملا فترتخي
عضلاتها وتبعد مستريحة راضية هائلة ٠٠
كانت هذه الأصابع الغليظة هي كلّ شيء في حياة سعيد
أو سوسو كما كتب على لافتة محله ، وكما تناديه الأصوات
الرفيعة الناعمة ، يفكر بأصابعه ، وينظر بأصابعه ، ويشتم
بأصابعه ، ويعيش بأصابعه ٠٠
لكنّه اليوم بدا يحسّ أن له رأساً فوق عنقه تثقله افكار
كثيرة ٠٠

سوسو ١١ ٠٠

أخذ الاسم يدقّ في رأسه كمطرقة حادّة بينما راحت أصابعه
السميكة تسبح في رشاقة بين خصلات الشعر الناعم ٠٠
سوسو ١١ ٠٠

وقلب شفّتيه امتعاضا وهو يراجع اسمه بينه وبين نفسه
٠٠ ما الذي جعله يستمي نفسه سوسو ؟
ونظر الى المرأة فرأى صدره يغطّي شعر أسود ٠٠ كثيف
٠٠ وتأمّل قامته الطويلة العريضة ، وهبطت نظراته الى يديه
فرأى أصابعه الغليظة وهي تنتقل بغير وعي بين خصلات الشعر
٠٠ غريبة ٠٠ كيف ستّمي نفسه سوسو ؟ أو سمح لنفسه
أن يستمي هذه الجثة الضخمة المغطّاة بالشعر سوسو ؟ لماذا
لم يستمي نفسه طبرزان أو ضرغاماً ٠٠ أو أيّ اسم من تلك
الاسماء المذكّرة الحشنة التي تليق برجولته ، وتجبر الناس على
احترامها ٠٠

نظر الى المرأة ثانية يتفقّد نفسه ليكتشف أيّ شيء فيها
يشبه سوسو ٠٠
ولم يجد شيئاً إلّا ذلك القميص المشجّر الذي يبدو شاذّاً
على صدره العريض المشعر ٠٠

واحسنّ بالدماء تغلي في رأسه، وودّ لو خلع هذا القميص أو
مؤذنه ، وشطب اسم سوسو من اللافتة ٠٠

— أوه ! ٠٠ حاسب شويه ياسوسو ٠٠ المكروه لسعتني !
صاحت صاحبة الشعر الأسود الداكن بعد أن مسّت المكوة
في يد سوسو الثائرة طرف أذنها ٠٠
لسعة خفيفة ، أصابت جسمها بشيء من الانتشاء ، فعادت
تتأوّه من جديد وهي تنظر الى سوسو نظرة نداء مكتوم صارخ
وقالت في ميوعة أنثويّة :

— أوه ! مش تحاسب عليّ يا سوسو ؟
ولم يردّ عليها سوسو ، لم يجد في نفسه رغبة للردّ على
هذا النداء المكتوم كما كان يفعل دائماً ويقول لها في ميوعة
مذكّرة :

— بعد الشرّ عنك ٠٠ انشأته يا مدام أنا الى اتلسع ٠٠
ويتعمّد أن يلسعها مرة أخرى لسعة خفيفة لتنتفض على
كرسيّها وتنتشي أكثر وأكثر وتتأوّه أكثر وأكثر ٠٠
كان يعلم أن أنوثتها الصالحة في المجتمع المحروم في حاجة
الى شيء من هذه الأشياء الصغيرة ٠٠ لسعة خفيفة بالمكوة ٠٠
قرصة في الذراع ٠٠ نظرة اشتها خفيفة ٠ شدة شعر
مقصودة ٠٠

هذه الأشياء الصغيرة المباحة في المجتمع التي تنفّس بها
النساء عن ضغط غرائزهنّ ٠٠ أشياء صغيرة لا يطلق عندها
المجتمع الإشاعات ويرضاها الأزواج كلّ الرضا مادامت الزوجة
ستصفّق شعرها كما تفعل كلّ النساء ٠٠ إنّ المجتمع لا يرضى
عن الشذوذ أيّ كان ٠٠ حتى ولو كان شذوذاً فاضلاً ٠ ويرضى
عن المعتاد حتى ولو كان خاطئاً ٠٠

ثم إنّ هذه الأشياء الصغيرة تحدث داخل صالون الكوافير
سوسو ٠٠ وسوسو هذا لا يثير غيرة الأزواج ٠٠ يكفي أن

اسمه سوسو ٠٠ وأنه يلبس قميصاً مشجراً ٠ إنهم لا يعتبرونه
رجلا ٠

إن المجتمع ينظر الى الكواير سوسو على أنه امرأة لها
شنب !

ووضع سوسو المكوة على النار وراح ينظر اليها وهي تلتهب
وتحمر ٠٠ وتذكر حادثة اليوم التي قلبت يومه الى جحيم
أشد ناراً من هذه النار التي يراها بعينه ٠٠ لقد قضى ست
سنوات أو أكثر وهو يصف شعور النساء دون أن يشعر
بأي خزي أو عار ٠٠ وظل اسمه سوسو معلقاً على لافتة محله
سنوات وسنوات ، والنساء ينادينه سوسو ٠٠ ولا شيء في
ذلك يمس رجولته ٠٠ وماذا كان يعنيه من تلك الكلمة الجوفاء
الفارغة « رجولته » ما دام يكسب في اليوم عشرين جنيهًا
تقريباً ٠٠ وله رصيد ضخم في البنك يزيد عن رصيد أي بيه
محترم ٠٠ ثم إنه في النهاية يعود الى زوجته ليثبت لها كل
ليلة أنه رجل ٠٠

لكن حادثة اليوم هي التي أصابت رجولته في الصميم ٠٠
كان ذاهباً في الصباح الى محله ليفتحه ويبدأ عمله اليومي حينما
قابله في الطريق رجل يعرفه وهو صاحب البقالة الجديدة
الكائنة بجوار محله ، ووقف الرجل يتأمل القميص المشجّر
ثم قال في ميوعة وهو يربت على كتفه كأنه يربت على كتف
امرأة : ازيك يا سوسو ! ٠٠ يا حنتوسو !

ولم يعرف لماذا غلا الدم في عروقه في تلك اللحظة ٠٠ لقد
ظلت النساء ست سنوات كاملة ينادينه سوسو ويربتن على
كتفه لكنه لم يشعر في أي لحظة أنهن يعاملنه كامرأة ٠ وبالعكس
كن يشعرنه برجولته دائماً ٠٠ ولكن هذا الرجل الصفيق ٠٠
يناديه سوسو ٠٠ ويعامله كامرأة ٠

وانتبه سوسو من حمية الصراع في رأسه على ذراع ناعمة

بضّة تلتف حول عنقه وصوت ناعم يهمس في أذنه :
- صباح الخير يا سوسو .. ادينى ميعاد عشان تعمللى
شعرى .. أجيلك امتى ؟

ونظر اليها سوسو فى استغراب .. إنها تلتصق جسمها
بجسمه بشكل يلفت النظر .. ولكنّ كل النساء داخل المحلّ
لا يلتفتن .. إن ذلك شيء عادىّ جدّاً عند الكوافير سوسو فى
نظر المجتمع .. وشيء غير عادىّ جدّاً فى حجرة تضمّ رجلاً
وامرأة متحابّين ..

وقال سوسو فى تأدّب : بعد ساعه يامدام ..
ونظرت اليه شزرا وقرصته فى أذنه وقالت وهى تتأوّد :
- هى .. مالك النهارده كده واخذها جد قوى .. هى ..
.. هى ..

وانطلقت حناجر النساء تقول جماعة : .. هى .. هى ..
مش عارفه سوسو ماله النهارده ؟ مبوز كده ليه ؟ شايل طاجن
سته .. الواد جد خالص .. آل يعنى .. ما تتعدّل يا واد يا
سوسو والا أجيلك وانت عارف أنا باعمل لك ايه ..
- ايه ؟ بتعمليلو ايه يا روحيه ؟

- هى .. هى .. هى .. هو عارف ده سرّ بينى وبينه ..
- هى .. لازم بتقرصيه .. أصله واد مضروب يموت فى
القرص !

قرص !؟

نفذت الكلمة من أذنه الى رأسه كطلقة المسدس .. إنّ
النساء تعوّدن أن يقرصنه من ذراعه .. من رقبته .. من أذنه
.. كيف سمح لهنّ بذلك ؟ كيف ترك جسمه نهياً لأصابعهنّ
النهمة الجائعة ؟

وأحسّ سوسو بمرارة فى حلقه تشبه المرارة التى تحسّ
بها المرأة التى تترك جسدها نهياً لجوع الرجال يعبثون به

كيف شاءوا وأتى شاءوا ..
الى هنا لم يحتمل سوسو مزيداً من الأفكار والهواجس ..
الى هنا بلغت أعماقه قمة التوتر ، فانفجر في النساء كالضرغام:
- بس ! مش عاوز كلام ولا هاهاه .. انتم ايه ؟ جاينين
تعملوا شعركم والا جاينين ..
ولم يكمل .. كان على وشك أن ينطق بكلمة نابية فامسك
نفسه بصعوبة والعرق الغزير يتصبّب من رأسه ورقبته ..
ونظرت اليه النساء فاغرات أفواههن .. مشدوهات .. وساد
بينهن الصمت لحظة .. ثم افقن مفزوعات على شكله الغريب
.. الثائر ..

- هو جرى له ايه ؟
- يا نهار اسود باين عليه اتجتن ..
- اتجتن ؟
- اتجتن ؟

واندفعت النساء ملعورات خارج المحلّ بشعورهن المنكوشة
وكانّ مارداً يطاردهن ..
وجلس سوسو في المحلّ الحالي ورأسه بين يديه .. ومن
حين الى حين يرفع رأسه وينظر الى شعر صدره العريض في
المرأة ثم الى اصابع يديه الغليظة الخشنة ويهتف لنفسه بصوت
مكتوم : أنا رجل .. أنا ضرغام .. أنا سبع !
وبعد أيام قليلة كانت اللافتة المكتوب عليها « كوافر سوسو »
قد اختفت ، وظهر مكانها لافتة أخرى خشنة كتب عليها :
« جزارة سفيد الضبيع » ..



لن نَجِدَ بِإِلَهِائِى

الشخصيات :

أسامه محمود ، مهندس ناجح ، فى
الخامسة والثلاثين من عمره ٠٠ ليل زوجته
٠٠ مدرسة لغة عربية ، فى الثلاثين من
عمرها ٠٠

المنظر :

صاله أنيقة فى منزل المهندس أسامه محمود ،
يجلس أسامه على أحد الكراسي الكبيرة ٠٠ يبدو
عليه الشرود والتفكير العميق ، يمسك رأسه بين
يديه ٠ تدخل زوجته ليلي ومعها حقيبة وقد ارتدت
ملابس الخروج ٠٠ وحينما يسمع وقع قدميها ،
يرفع رأسه ويقول لها بصوت حزين :
أسامه - هل أنت جادة فيما قلت ؟

ليلي - ألم نتفق على كل شيء .. وكتبت لك تنازلاً عن كل شيء ..

أسامة - ولكن بقي شيء لم نتفق عليه بعد ..

ليلي - ما هو ؟

أسامة - الجنين ..

ليلي - « ساخرة » الجنين ! .. إنه داخلي أنا بكل أسف .

وأنا حرة فيه ، أبقيه أو لا أبقيه ..

أسامة - « غاضبا » أنا أبوه ومن حقّي أن امنعك ..

ليلي - « تنظر اليه ولا ترد » ..

أسامة - « مستعظفا » ليلي .. اسمعيني .. لا تكوني حمقاء .. إنك لا تحبّيني ولا تريدن الحياة معي .. هذا من شأنك .. ولكن هذا الطفل ابني أنا .

ليلي - ولكن ألا ترى أنّه من الأصلح لثلاثتنا .. أنا وانت والطفل ، ألا يولد الطفل أبداً ؟ .. كيف تكون حياته حينما يكبر ويعلم أنّ أمّه وأباه لا يعيشان معاً ؟ ..

أسامة - ولماذا أمّه وأبوه لا يعيشان معاً ؟

ليلي - لأنّ أباه لا يفهم أمّه ..

أسامة - ولكنّه يحبّها ..

ليلي - إنه يحبّ نفسه ..

أسامة - الآنني أريد أن أوفر لك الراحة .. ماذا تأخذين من هذا الجري والتعب كل يوم .. عشرين جنيهاً كل شهر ؟ سأعطيك هذه العشرين جنيهاً في يدك كل شهر ، ولا داعي أبداً لأن تكون زوجتي موظفة حكوميّة تلهث وراء الاتوبيس كلّ صباح ..

ليلي - إنك لا تفهمني .. أنا لا أعمل من أجل العشرين جنيهاً .. إنني أحبّ عملي ..

أسامة - عملك ؟ إنّ عملك الأساسيّ في الحياة هو بيتك ..

هو زوجك .. هو أنا ..

ليلي - انت ؟

أسامة - نعم أنا .. ألا أكفيك؟

ليلي - ولكنك لا تحقق ذاتي .. إنك تحقق ذاتك أنت ..
وما أنا إلا وعاء يحمل أطفالك الذين تستبهم باسمك ، ويصنع
الكلك الذي تهضمه وتحوله الى فضلات .. إنتى أعيش من أجل
وجودك .. إن وجودي أنا لا وجود له ..

أسامة - كيف ذلك ؟ أنت زوجتى .. حرم المهندس أسامة

محمود ..

ليلي - حرم المهندس أسامة محمود ا حتى اسمي تلفيه
وتضع اسمك على غلافي .. يا لك من أنانيّ .. « نائرة » لا
.. لا أريد هذا .. لا أريد هذه الحياة .. لست فى حاجة اليها ..
استطيع أن أعيش وحدي ، وأنفق على نفسى ، صحيح أنه لن
يكون بيتاً كبيراً كهذا ، ولكنه سيكون بيتي أنا .. أضع
عليه اسمي : « ليلي صادق » .. سيكون بيتاً صغيراً بسيطاً ،
ولكني سأحبه .. لأنه سيكون ملكي ، وسأعيش فيه كما أريد
.. سأكون حرة .. لست تابعة لأحد ، سأحقق ذاتي وأشعر
بفرديتي .. ويمكننى أن أستاذج « خادمة » صغيرة تغسل
ملابسي وتصنع طعامي .. وتقوم مقام الزوجة - كما يراها
الرجال - وتتولى هذه الأعمال الثقيلة الجادة ، التى لا يمكن
لأي إنسان ذكي أن يجعلها حياته ..

أسامة - لقد أفسدك التعليم والعمل لو لم تتعلمي وتوظفي
لما كان فى إمكانك أن تتركي هذا البيت ، ولعشت معي راضية
قائمة .. لا يمكن أن تسير الحياة وقد أصبحت النساء رجالات ..
ليلي - « ساخرة » النساء رجالات .. ومن قال إن المرأة
تصبح رجلاً اذا تعلمت ، وعملت وأصبحت إنساناً له كيانه
واسمه ؟ هل خلقت المرأة لتطبخ وتغسل ؟

أسامة - خلقت لتكون أمًا ٠٠ الرجل لا يمكنه أن يلد أو يرضع الاطفال ٠٠ إن الطبيعة خلقت للمرأة رحماً ليحمل داخله الجنين ٠٠ وخلقت لها ثديين ليرضع منهما ٠ لماذا لا تحاكمن الطبيعة لأنها خلقتك امرأة ولم تخلقك رجلاً؟

ليلي - إنني لا أريد أن أكون رجلاً ٠٠ لقد خلقت امرأة ولا أشعر بأي نقص في طبيعتي ٠٠ إن الرجل هو الذي أدخل في نفس المرأة أنها أقل منه ، وأضعف منه ، وقال لها إن في داخلك رحماً ٠٠ والطبيعة أرادت هذا النقص فيك ٠٠ ولكن الطبيعة بريئة ٠٠ هذا الاختلاف لا يعني أن المرأة أضعف من الرجل ، وأقل منه ٠٠ وإن له الحق في أن يفرض عليها سيطرته وحمايته ٠٠ الطبيعة تنطق بأن المرأة إنسان كالرجل لها رأس مثل رأسه ، ومخ مثل مخه ، ويدان مثل يديه ، ورجلان مثل رجله وكتفان مثل كتفيه ، وقلب مثل قلبه وكبد مثل كبده ٠٠ وإن الحمل والولادة وظيفه واحدة من وظائف كثيرة يقوم بها جسم المرأة ٠٠ لماذا تتهم المرأة بالضعف حينما يخرج رحمها محتواه ولا تتهم الرجل بالضعف حينما تخرج أمعائه محتوياتها مثلاً ٠٠ إن الفلاحة تلد طفلها في العراء ٠٠ وتضعه على رأسها في القفة ، وتواصل عملها في الحقل ، تماماً كما ينتحي زوجها وراء شجرة ليقضي حاجته ثم يعود إلى مواصلة عمله ٠٠ لماذا إذن يستعبد الرجل المرأة ويلغي ذاتها لتصبح تابعة له طول العمر؟ ٠٠

أسامة - إن منطقك عجيب ٠٠ لم أسمع في حياتي امرأة تتكلم كما تتكلمين ٠٠ إن المرأة ضعيفة ، حتى ولو لم تحمل وتلد ٠ إنها امرأة ٠٠ جسمها ضعيف ٠٠ وعواطفها متقلبة تطفئ على تفكيرها ، إغراؤها سهل ٠ إنها في حاجة إلى رجل يقودها ٠٠ إلى رجل تتبعه ٠٠ ومن تتبع المرأة إذا لم تتبع رجلاً؟

ليلي - وهل لا بد للمرأة أن تكون تابعة لأحد .. ألا يمكن أن تكون مستقلة .. إن منطقك يشبه منطق الإنجليز حينما احتلوا مصر .. قالوا إنها ضعيفة وتحتاج الى حماية . ولكن حمايتها ضد من ، وهم الذين يعتدون عليها ؟ حمايتها ضد أنفسهم .. إن المرأة ليست ضعيفة كما تقول .. عواطفها لا تغلب تفكيرها ، وإغرائها ليس سهلا .. إن المرأة تعرف كيف تحكم عواطفها .. وغرائزها طوال حياتها .. بعض النساء يعشن في عزلة دائمة ولا يتكلمن .. وبعض النساء يطوين قلوبهن على مشاعر لا تجد طريقا الى النور ، والمرأة تقاوم الرجل دائما .. والرجل يلهث وراء المرأة دائما .. وتقول إن المرأة ضعيفة لأن اغراءها سهل .. ما بالك إذن بالرجل الذي في غير حاجة الى إغراء على الإطلاق .. إن الرجل هو الذي في حاجة الى حماية !

أسامة - ولكن القوانين كلها تفرض حماية الرجل للمرأة .. فهو الذي يختارها .. وهو الذي يتزوجها .. وهو الذي يطلقها .. وهو الوصي عليها لا يمكن أن تخالفه . هذه هي القوانين التي وضعتها الطبيعة ، وتسير عليها كل النساء .
ليلي - الطبيعة لم تضع قوانين .. الرجل هو الذي شرعها كما يهوى .. هو الذي شرع سيادته ..

أسامة - ولكن المرأة تحب من الرجل أن يكون سيدها .. إنها تعشق وضعها عند قدميه ..
ليلي - المرأة لا تعشق ذلك .. لقد ربّوها على أن الرجل هو السيد .. ولقنوها وهي طفلة أنها أقل من أخيها الولد .. وأن أمها أقل من أبيها .. وقتلوا شخصيتها ، وفرديتها ، وأعدّوها لمتعة الرجال .. ماذا تنتظر من امرأة تتربى هذه التربية غير أن تتزين وتتعطر وتلك ساقها وتزحف الى قدمي الرجل ؟

اسامة - إن المرأة الطبيعية هي التي تفعل ذلك .. ماقيمة
 المرأة في الحياة اذا لم تجذب الرجل إليها ؟ وما قيمتها اذا لم
 تتزين وتتعطر .. أم أنك تريد أن يتزين الرجل للمرأة ؟
 ليلى - وهل من الضروري أن يتزين أحدهما؟ .. لماذا لا يكون
 كل منهما على طبيعته .. لا أدري لماذا تضع المرأة على وجهها
 تلك المساحيق البيضاء ، والحمراء ، والخضراء .. إنها تفسد
 ملامح الوجه ، وتخفي لون البشرة الطبيعي الذي يعكس النفس
 والروح ، إنني أرى وجوه النساء في الشارع فيخيل إلي أنه
 وجه واحد مكرّر .. كلهن متشابهات .. كأنهن يلبسن وجوها
 صناعية في حفلة تنكرية .. إنني لا أنتمي الى هؤلاء النساء
 .. أنا لست منهن !

اسامة - بالطبع لست منهن .. فأنت لست امرأة . ولكن
 اذا لم تكوني امرأة فماذا تكونين .. رجلاً ؟
 ليلى - لست رجلاً .. ولست امرأة ، كذلك التي تسميها
 أنت امرأة .. إنني لا أعترف بتسميتك .. لأنني امرأة في
 أعماقي ، ولكنني من نوع لا تعرفه .. ولا تستطيع أن تعرفه
 .. إنه يبدو لك غريباً شاذاً كأنه جنس ثالث .

اسامة - امرأة .. إنني لم أر في حياتي امرأة ولا رجلاً
 مسترجلاً مثلك .. وبالطبع الرجل هو الذي يحكم على أنوثة
 المرأة ..

ليلى - « ساخرة » أعتقد أن أمامك خمسين سنة من القراءة
 والفهم حتى تتمكن من أن تحكم على أنوثتي وتفهمها ..
 اسامة - ها .. ها .. من قال إن الأنوثة في الكتب .. إنها
 إحساس فطري يشعر به الرجل نحو المرأة .

ليلى - كل إحساس فطري يحتاج الى التهذيب ، والدراسة
 والتطور .. إن الرجل الذي يعيش في الغابة يفهم أنوثة المرأة
 فهماً يختلف عن الرجل الذي يعيش في نيويورك .. إن

الأُنوثة منذ خمسين عاماً كانت تختلف تماماً عن الأُنوثة هذه الأيام ٠٠ ثم دعني أسألك أولاً ٠٠ ماهي الأُنوثة ؟

أسامة - الأُنوثة ٠٠ هي الجمال ٠

ليلي - الجمال ؟ ٠٠ أيّ جمال ؟

أسامة - جمال المرأة ٠٠

ليلي - أيّ شيء في المرأة ؟

أسامة - جسمها ، ووجهها ٠٠

ليلي - جسمها ووجهها ؟ هل هذا هو الجمال ٠٠ إنّ جسم المرأة ووجهها ليسا إلّا جلدها الخارجي ، تستطيع أن تغيّره بالحرباء ، مرة خضراء على العشب ، وأخرى صفراء على الرمال ٠٠ إنّ الجمال في رأيك يوجد في علب أنيقة في الصيدليات ، ومحلات الحردوات ويستورد لنا من ماكس فاكترور وكريستيان ديور ٠٠

أسامة - أين يوجد الجمال إذن ؟

ليلي - تحت الجلد ٠٠ في الدم ٠٠ الدم يجسري في كلّ مكان المرأة ويفذي قلبها ومخّها ٠٠ الدم يرسم روح الجسم ويحدّد تعبيره وأحاسيسه ، ومفاهيمه ، وملامحه ٠٠

أسامة - وإذا كانت الملامح قبيحة ؟

ليلي - القبح ليس في الملامح ٠٠ القبح في الدم ٠٠ تصوّر امرأة عيناها واسعتان برّاقتان ولكن نظراتها تشعّ الكراهية أو الغيرة أو التكلف أو البرود ٠٠ هل تقول إنّ عينيها جميلتان ؟ إنّ جمال العينين يكمن في جمال النظرة ٠٠ النظرة التي تعبّر عن المعنى الجميل ، كالحنان ، أو الحبّ ، أو الرقة ، أو التسامح ٠٠ النظرة الدافئة الطبيعية التي تشعرك أنك إمام عينيّ نابضتين بالحياة يجري فيهما دم ينفع ، ويتأثر ، ويعكس صور الحياة كلها ، وليستا عينيّ متشنجتين تروحان وتجيئان كقطعتي زجاج ٠٠

أسامة - الواقع أنّني لم أدرس علم النفس ، ولا علم الأرواح

٠٠ إننى أحكم على الناس بمظهرهم ٠٠ ليس لديّ وقت لأن
 اغوص فى الأعماق ٠٠ إننى اضيع حياتى لو أننى فعلت ذلك ٠٠
 ليلي - بل إنك تضيع حياتك ، لأنك لاتفعل ذلك ٠٠
 أسامة - اسمعى يا ليلي ٠٠ لقد ضقت ذرعا بهذه المناقشة
 إننى أحبك لكنك تعملين على القضاء على هذا الحب ٠٠
 ليلي - حبّ ؟ ٠٠ إنك لم تعبني قطّ ٠٠ لقد أحببت امرأة
 غيرى تلبس جلدى ٠٠٠
 أسامة - أنا لا أفهم هذه الألغاز ٠٠ أنا رجل مهندس ٠٠
 لا أفهم إلّا فى الهندسة ٠٠ ولكنى لا أمانع فى أن تكون هوايتك
 اعتناق هذه الألغاز ٠٠ على ألا تتعدى حدود النظريّات ٠٠
 أتعرفين ؟ لا تتعدى الكلام ؟ والآن ٠٠ ماذا تنوين عمله ؟ ٠٠
 هل مازلت مصرّة على الطلاق ؟
 ليلي - طلاق ؟ ٠٠ تلك الورقة التى يكتبها المأذون لنصبح
 غرباء ٠٠ ولكن ألم تشعر أننا كنّا غرباء ونحن فى سرير
 واحد ؟
 أسامة - « يشير الى بطنها » ولكنّ هذا الجنين يشهد على أننا
 لم نكن غرباء ٠٠
 ليلي - الجنين لا يشهد على شيء إلّا على الزواج ٠ إننى أحسنّ
 أنه ليس طفلي ٠
 أسامة - ليس طفلك ؟ ٠٠ ماذا تقولين ؟
 ليلي - لست إلّا وعاء يحمله ويفذه ٠٠ إنّه قطعة غريبة
 عني ٠٠
 أسامة - لقد فقدت عقلك بلا شكّ ٠٠ أنت فى حاجة الى
 طبيب ٠٠
 ليلي - « تمسك رأسها بين يديها وتنتحب » أسامة يقترب
 منها ببطء ويضع يده على كتفها ٠٠ ليلي تستمرّ فى النشيج «
 أسامة - ليلي ٠٠ ليلي ٠٠ ما الذى أصابك هذا الصبح ٠

لم كل هذه الثروة ؟ لأنني طلبت منك أن تتركي العمل ؟ ..
كفى .. كفى .. لا تبكي . اذهبي الى العمل ولا داعي لـكل
هذه الثروة ..

ليلي - « ترفع رأسها وتنظر اليه في دهشة » ولكنني ..
أسامة - « ساخرا » : لا تحبينني ا ولكنني أحبك .
ليلي - كيف ؟

أسامة - إنني أحبك ولا أطلب منك أن تحبينني . ويكفيني
أنك لا تحبين أحداً غيري ..
ليلي - ولكنني قد أحبّ أحداً غيرك ..
أسامة - لا أظن ..
ليلي - لماذا ؟

أسامة - لأنك لن تجديه .. لن تجديه يا ليلي ..
(يقترب منها ، وياخذ الحقيبة من جوارها ، ويتجه الى داخل
البيت .. تبقى ليلي وحدها في الصالة .. تضع رأسها بين
يديها وتبكي) ..

« يسدل الستار »



ليست عذراء

أقبل الحاج بدوي دكانه بالقفل ، ونفض يده من التراب ثم أدخلها في جيبه وأخرج قرن قرنفل وضعه تحت ضرسه الذي يؤلمه من ثلاثة أيام ، ولم يخرج ورقة النشوق كعادته ليشم ويعطس ، فقد كان مهموماً حزيناً ٠٠ نفسه مصدودة عن النشوق وعن كل شيء ٠٠

حتى أنه حينما مرّ في طريقه على قهوة بيومي التي يجلس عليها كل ليلة مع الحاج محمد ليشرّب الجوزة ويدردش ، ويراقب الست حميدة وهي تجلس وراء الشيش الموارب ٠٠ وعلى رأسها المنديل الحريّ الأحمر الذي يلتهم حاجبها الأيمن ويترك حاجبها الأيسر متدلّياً على عينيها العسلية المنكسرة ٠ لم يستطع الحاج بدوي أن يعرج على القهوة ولا حتى أن يلتفت إليها ، بل مرّ من بعيد وهو يكبس عمامته على رأسه لتخفي جبهته ، إنه لا يريد أن يراه أحد ٠٠ ولا أن يرى هو أحداً ٠٠ يكفيه ما سمعه من الناس ، الذين ليس لهم عمل منذ ثلاثة أيام إلا الحديث عن الحاج بدوي ٠٠ وشرف الحاج

بدوي ٠٠ وسيرته على كلّ لسان منذ ليلة الفضيحة ٠٠ ولولا
تجارته وحاجته الى القروش التي يكسبها من بيع البهارات
والقرنفل والجنزبيل ٠٠ لولا ذلك لبقى في بيته لا يبرحه
أبدًا ٠٠

ووصل الحاج بدوي الى بيته وهو يلهث ، إنه لم يتعود المشي
السريع هكذا ، وأخرج المفتاح من جيبه وفتح الباب ، ودخل
حجرة النوم ٠٠ وأخذ يخلع ملابسه في ثناقل ثم وثب على
السرير ٠٠ وحينما وضع رأسه على الوسادة سمع شخير
زوجته الخافت وهو يعلو على أنفاسها فالتفت اليها وهي غائبة
كالمتى في نوم عميق ، وأخذ يتأمل بشرتها ذات التجاعيد
وشفتيها اليابستين ٠٠ ومصمص شفتيه بازدياد ، وأعطاهما
ظهره وهو ينفخ ، وغطى رأسه باللحاف لينام ٠٠ لكن صورة
سعدية بملابس العرس ظهرت أمامه وهي تجلس في وسط
كوشة من البنات والازهار وعلى رأسها تاج أبيض ٠ والعريس
ببذلته الكحلي يروح ويحيى بين الناس ٠٠ والناس يبخلقون
في الناس ويشربون الشرابات بالاربعة اكواب ٠٠ والصوان
الفخم مقام ٠٠ وصوت الميكروفون يذيع الأغاني والزغاريد
وإيقاع الرقص والصاجات ٠٠ وحيّ السيدة زينب الذي يبيت
كلّ ليلة بعد صلاة العشاء ساهراً في نوافذه يطلّ على ذلك
العرس النادر ويحكى قصة العريس والعروس مئات المرات ٠

وقلب الحاج بدوي فجأة وجهه ناحية زوجته ٠٠ ولمعت
عيناه الضيّقتان كعيني الصقر وهو يتأمل عظام فكّيها البارزة
المدبّبة ٠٠ إنه لا يذكر أن رأى لزوجته وجهاً غير هذا الوجه
٠٠ ولكم دعا في كل ليلة بعد زفافه على أم يوسف الحاطبة
٠٠ ولعنهما ولعن أجدادها وبصق عليها وعليهم ٠٠ عشر سنين
مضت وهو في كلّ ليلة يصبّ اللعنات على رأسها كلّما رأى
وجه زوجته ٠٠

وكانت سعيدة طفلة في العاشرة تجري وتلعب .. وأحياناً
تقفز فيرى ساقها وفخذها السمينتين .. ولم يدر لماذا كان
يطيل النظر إليها .. وحينما كان يستدرجها الى « البلكونة »
ويجلسها الى جواره .. ويمرّ بأصابعه على ساقها يتحسّس
بشرتها الناعمة كأنه يقول لنفسه : عيب يا حاج بدوي .. ده
انت خالها .. وبترتيبها بعد موت أبوها .. عيب يا راجل ..
ياللى حاجج بيت الله ..

لكنّه كان لا يستطيع أن يقاوم هذه الرغبة الملحة كلما رآها
وهي تقفز .. فرق كبير بين ساقها الناعمتين وبين ساقتي
زوجته الرفيعتين الياستين ..
وأحياناً حينما كان يفقد السيطرة على رغبته يضمّها الى
صدره .. ويداعب بشاربه الكثيف وجهها الناعم النضر ولا
يتركها إلا بعد أن تخنقها رائحة التبغ في أنفاسه فتصرخ ..
أو تعضّ أصبعه ..

وفي مرة .. لم يكن بالبيت سواها .. وكان مستلقياً على
السريّر يعرّبد بأنفاسه مع الجوزة ويراقب سعيدة وهي تلعب
كعادتها، وأحسن برغبة جارفة ، وشعر كأنّ دمه يغلي في عروقه
.. ولم يستطع المقاومة .. وقام اليها وحملها .. ووضعها
على السريّر .. وأحسن الحاج بدوي بالعرق ينتصبّ من جسمه
فأزاح عن نفسه اللحاف ، وتذكّر منظره وهو يلبث ثيابه
ويضع عمامته على رأسه وينزل مهرولاً الى السوق .. ثم يعود
اليها فيجدها كفتّ عن البكاء .. وحينما يعطيها الحلوى
الكثيرة تبسّم في سداجة وتنسى كل شيء .. وأحسن بالراحة
.. إنّها لم تفهم شيئاً ، لن تقول لأُمّها ..

وجفّ عرق الحاج بدوي فأحسن بالبرد ، وسحب اللحاف
ليغطى أنفسه ، فتعرّت زوجته وظهرت ساقاها الرفيعتان
فنظر اليها بضيق .. أنّه يكره زوجته من أول ليلة ..
ولقد كرهها أكثر بعد حادثة سعيدة .. وأحسن بالندم ..

وأصبح يفتر من البيت الى القهوة ليشرب الجوزة ويدردش مع
الحاج محمد فى الوقت الذى يخلق فيه الى « سيقان » النسوة
وهن يجتزن الشارع أمامه .

وانتشلت من ضياعه الست حمديّة . تلك الأرملة السمينيّة
التي تسكن فى مواجهة القهوة ، وكان يراها وهو يجلس على
القهوة تنظر بعين واحدة من فرجة الشباك ويرى يديها
البيضاوين السمينتين وهى تمسك بضلفة الشيش ، وساعدته
الست حمديّة فى التعرف عليها . وفى زيارتها . وفى كل
شيء . . واستعاض بها عن زوجته « الكركوبه » ونسى بها
سعديّة . .

لم يعد يثيره منظر ساقبيها وفخذيها وهى تقفز . . حتى
بعد ما كبرت واستدارت وبرز صدرها بشدة لم يشعر نحوها
بأي شيء ، لولا تلك الحادثة المؤلمة التى وقعت منه . . والتى
كانت تطفو على ذاكرته كلما فكر فى زواجها . . ولقد اختار
لها حسين أفندى عريساً لأنه رجل طيب . . كان المرحوم أبوه
رجلاً غيبياً ولا يمكن لحسين أفندى أن يرث الذكاء عن أمه . .
لأنه فشل فى تجارة الطعميّة بعد أبيه . . ونظره ضعيف . .
ولم يصلح إلا فى وظيفته الخفيفة التى توسّط له فيها أحد
أقاربه . .

وانتفض الحاج بدوي فى فراشه ، وعاد الى ذاكرته صوت
حسين أفندى ذلك الرجل الغيبى الطيب كما كان يظنّ ، وهو
« يجعّر » بأعلى صوته ويسبّ الشرف ويصق على العرض . .
ويصرّ على أن يطلق « بالثلاثة » قبل ظهور الشمس وأن يستردّ
مهرة وكل هداياه . . وأن يتنازلوا عن المؤخر وعن النفقة وأن
ينهوا الموضوع فى السرّ وإلاّ جعلهم مثله الحى . .
وأحسن الحاج بدوي بنار تتقد فى بدنه فقذف للحاف عن

جسده ورماء على جثة زوجته وقام يتمشى في الحجرة ٠٠
لقد أصبحت رقبته في « قصر » السمسم ٠ وهو لا يستطيع
أن يرفع رأسه في الحي ٠٠ ولا أن يجلس على القهوة ، ولا حتى
أن يرى الست حمديّة ، إنّهُ الآن في نظر الناس كلّهم رجل بلا
شرف حتى يغسل شرفه ، والرجل عندهم لا يغسل شرفه الا
بالدم ٠٠

وصعد الدم الى وجهه ، إنّ سعدية تنام الآن في حجرتها ولا
يفصله عنها سوى باب غير مقفول ٠٠
وتصوّر نفسه مرة أخرى الحاج بدوي الذي يمشی رافعاً
رأسه ، ويجلس على القهوة ٠٠ مع الحاجّ محمد يشدّ أنفاسه
مع الجوزة ٠٠ ويدردش ٠ وكلّ رجل يمرّ عليه يقرّئه السلام
٠٠ والست حمديّة ٠٠ آه ٠٠ مرّة أخرى يذهب اليها وتأخذ
بين أحضانها الدافئة ٠٠ ثلاثة أيام مضت وهو محروم من
كلّ هذا ٠٠

ووضع الكوفيّة على رقبته وأدخل « المطوة » في جيبه ، ثم
مشى على أطراف أصابعه ودفع باب سعدية ببطة ٠٠
وفي الظلام الدامس أخذ يتحنّس بيديه حتى وصل سريرها
٠٠ كان كل جسمه يرتعد وأنفاسه تتلاحق بسرعة وكاد يفرّ
من الحجرة بسرعة لولا أنّه تخيل سرير الست حمديّة وهي راقدة
عليه تفتح ذراعيها لأحضانها ، وألهبه الحماس فأخرج « المطوة »
من جيبه ومدّ يده على السرير يتحنّس رقبة سعدية ولكنّ يده
لم تصل الى شيء ٠٠ فاستعان بيده الأخرى ٠٠ ولم يعثر في
الظلام عليها ٠٠ ففتح النور ونظر على السرير ليجده خالياً ٠
ونظر تحت السرير ٠٠ وفي الدولاب ووراء الشّمانة ٠٠ لكن
سعدية لم تكن هناك ٠

وعاد الى حجرته والعرق يتساقط من كل جسمه ، وزحف
على السرير بجوار زوجته ٠٠ لقد هربت سعدية قبل أن يقتلها

•• قبل أن يثبت للحجّي أنه رجل يغسل شرفه بالدم •• كان يجب أن يقتلها أوّل ليلة •• سيقولون إنه جبان • لن يستطيع الجلوس على القهوة •• لن يرفع رأسه بين الناس • لن يستمتع بأحضان الستّ حمديّة الساخنة •• وجحظت عيناه في غيظ وحيرة •• وكانت « المطوّرة » لا تزال في يده ورأى زوجته راقدة كأنّها ميتة ••

ولم يدر لماذا أخذ يبحلق في رقبتها الرفيعة المعروفة وهي تصعد وتهبط مع شخيرها •• واهتزّت « المطوّرة » في يده وخيّل إليه أنه رفع يده بها وأسقطها على رقبتها •• وانفجرت دماؤها في وجهه •• واختلطت بعرقه •• لكنّه كان لا يفعل شيئا •• وترك « المطوّرة » في يده وأعطاهما ظهره •• وحينما أغمض عينيه وراح في غيبوبته ظهرت له صورة سعيدة •• طفلة صغيرة في العاشرة تمسك صرّة ملابسها وتسير في الشوارع ليس لها ماوى •• وفتح عينيه •• وأحس بشيء ساخن سخونة الدم يسيل على وجهه •• وسمع صوت نشيجه هو يعلو •• ويعلو •• على صوت أنفاسه •



لهيروفنس .. لهيروفنس

كان ذلك منذ عشر سنوات أو أكثر قليلا ، وكان مدرّج على
 باشا ابراهيم غاصّاً بالطلبة على سعته الكبيرة ، فهو أكبر
 مدرّج بكلية الطبّ ، لكنه أصبح يضيق عاماً بعد عام بذلك
 العدد المتزايد من طلبة الطبّ .. فكلّ طالب بالثانوي يريد
 كلية الطب .. ويحلم بكلية الطب .. ويرى نفسه في منامه
 وقد أصبح من هؤلاء السعداء الذين ينتمون الى كلية الطب ،
 ويراهم كلّ يوم وهم يركبون الاتوبيس من محطة القصر
 العيني ، وعلى أيديهم معاطف بيضاء متسخة تفوح منها رائحة
 غريبة نفاذة لا بدّ أنّها رائحة الجثث التي يشرحونها ، ويضحكون
 في كبرياء ، ويتكلّمون بصوت عالٍ ، ويتبادلون كلمات
 بالانجليزية ترنّ في قوّة وخيلاء .. لا شك أنّها أسماء الأمراض
 التي يكتشفون سرّها الدفين أو أسماء ما يشرحون من جسم
 الإنسان ويقفون على كلّ ما ينطوي عليه ذلك المخلوق العجيب
 .. وينادي كلّ منهم الآخر قائلاً : « دكتور » .. ويتساءل
 طالب الثانوى بينه وبين نفسه إن كان « دكتور » تصغيراً أم

تكبيراً للقب « دكتور » .. على أي حال فإن للكلمة وقعاً جميلاً في نفسه ، يحسن فيها شيئاً من الامتياز عن الناس ويرى الإعجاب بها في عيون ركّاب الاتوبيس .. ويبيت يحلم أنه حصل على الثانوية ، ودخل كلية الطب ، وركب الاتوبيس ، وفاحت رائحة نفاذة من معطفه ، ونطق بكلمات إنجليزية ساحرة .. وزميل يناديه يا « دكتور » .. ونظرات كلها إعجاب تتجه اليه ..

وهكذا كانت الأحلام تتكاثر ، وتتكاثر معها وفود الطلبة الى كلية الطب ، حتى بلغت الدفعة الواحدة في أيامي الخمسمائة أو تزيد ، لا يعرف الطالب زميله ولا يمكن أن يعرفه ، ولا يعرف الأستاذ الطالب ولا يمكن أن يعرفه .. ويقضي الطالب ست سنوات ونصفاً في الكلية على أقل تقدير ، ثم يخرج منها ولا يكاد يعرفه أحد اللهم الا بعض الفرّاشين الذين كان يرشوهم ليسرقوا له ذراعاً أو رجلاً أو جمجمة ، هذا اذا كان طالب طب مثالياً في نظر حرس الكلية على الاقل . أما اذا كان طالب طب فاشلاً أصابه الملل من الجري بالمشروط وراء الشرابين والأوردة والشعيرات الرقيقة فاتخذ لنفسه هواية أخرى غير التشريح .. وهي الخطابة .. ولم يجد موضوعاً يمارس به هوايته الا السياسة .. سياسة البلد . ونظام البلد .. والاستعمار والانجليز .. و .. و .. فاذا ما انتهت مشاكل البلد أو خيل له ذلك تحول الى سياسة البلاد الأخرى .. فلسطين الشهيدة .. و .. و .. ويضرب بقبضة يده على منضدة الأستاذ ويخطب بصوت جهوري تهتّز له جدران مدرّج على باشا ابراهيم الشاهقة ، أما الطلبة فلا يكاد يسمعه أحدهم ويعتونه شراً لا بدّ منه كلّ صباح .. أما حرس الكلية فهم يولون موهبة الخطابة أهمية أكثر .. ويدونون اسمه في سجلاتهم ، ويحفظون ملامحه في صورة شمسية ، ويتعقبون

خطاه داخل الكلية ٠٠ فى المعامل ٠٠ والمدرجات ودورات المياه
٠٠ ولا شك أن هذا العمل مفيد الى حد ما ٠ فهو يخفف فراغهم
الموحش بعض التخفيف ويرضى غرور الطالب الفاشل بعض
الرضا ٠٠

وفى ذلك اليوم كان المدرج بمقاعدہ وأرضه ونوافذه مختفياً
تحت أجساد الطلبة المتلاحقة ٠٠ وزفيرهم الساخن يرفع حرارة
الجوّ فنصبح فى الصيف ونحن فى الشتاء ، وكنت البس معطفاً
سميكاً كاللحاف لم أجد بداً من أن أخلعه وأضعه فى حجري ،
وهو المكان الوحيد الذى بقي خالياً فى المدرج ٠

وكان الصخب يملأ المدرج والأصوات العالية الغليظة الجشاء
تهزّ طيلة أذني الرقيقة فتكاد تمرّقها ٠٠ ولم أكن أدري مصادر
كلّ هذه الأصوات المتباينة المتنافرة ، لكنني كنت أرى المدرج
وقد امتلأ بأفواه متلاصقة تتسع وتضيق ، وتضيق وتتسع ،
فى سرعة عجيبة تسبق العين ٠٠ وهناك على مرمى البصر وقف
مكان الأستاذ طالب أعرفه ٠٠ والحق أننى لا أعرفه شخصياً
لكنني أستطيع أن أتعرف على أنفه من وسط آلاف الأنوف ٠٠
فهو خطيب الدفعة ٠٠ وكل دفعة لها خطيب على الأقل ٠ وكان
لدفعتنا خطيب واحد ٠٠ ولهذا فقد كانت فرقة حسنة السمعة
٠٠ يتنبأ لها حرس الكلية بالنجاح المطرد ٠٠ هذا اذا لم يزد
عدد الخطباء أثناء الدراسة الطويلة الشاقة ٠٠ وكثيراً ما كان
يزداد ٠٠

وكان الخطيب واقفاً كالضرغام ، يهدر ويهز ، وكلماته
النارية تندفع فى أذني كطلقات الرصاص ، لا تلبث أن تستقرّ
فى رأسي وتفرّق : « أيّها الشباب ٠٠ أيّها الابطال ٠٠ هذا
هو يومكم ٠٠ الوطن يناديكم فلبّوا النداء ! أيّها الشباب ٠٠
ليس مكانكم هنا فى المدرجات ٠٠ وليس عملكم التشريح
والمرورات ٠٠ ولكن مكانكم هناك ٠٠ فى ساحة القتال ٠ فى

أرض القنال ! .. هيا أيها الشباب ! دعوا المشاركين والمحاضرات
 .. ودعوا الكتب والمذكرات .. هيا انطلقوا ! الى الميدان ..
 الى الميدان .. الى الميدان ! الى الكفاح الى الكفاح ! .. الحرية
 أو الموت .. الاستقلال أو الهلاك ! .. أيها ال ... »

وظهر الأستاذ في فتحة الباب ، واختفى الخطيب ، وانقطع
 الهدير .. وتوقف الصخب .. وثبتت الأفواه المتحركة ..
 وساد السكون في المدرّج . ووقف الأستاذ بقامته القصيرة
 النحيلة ينظر من خلال نظارته السمكية الى الطلبة في تحقّر
 .. كأنه يتوقع هجوماً من أحد .. أو كأنه يسأل جسمه
 بنظرات قويّة قد تخيف تلك العيون الشاحصة اليه من كل
 شبر في المدرّج .. وظلّ الأستاذ دقيقة أو دقيقتين متسلّحاً
 وراء نظارته الغليظة ، والصمت التامّ يشمل المدرّج .. والطلبة
 يجلسون متأهّبين مترقّبين ، أقلامهم في أيديهم ، ومذكراتهم
 مفتوحة ، وأنفاسهم مكتومة ، وأذانهم مرهفة تنتظر أوّل درة
 تسقط من بين شفّتي الأستاذ الخطير ..

وأخيراً انفرجت الشفتان .. لا عن درة إنما عن قبلة ..
 « هيتروفس .. هيتروفس » .. وتشتبعت نظرات الطلبة
 يحملقون في الأستاذ .. وساد الصمت ثانياً . ثم انطلق
 الصوت الرفيع الحادّ مرة أخرى كطلقة المدفع : « هيتروفس .
 هيتروفس » وتصلّبت رهوس الطلبة وهي مشدودة نحو الأستاذ
 بلا وعي وكأنه القى في وجوههم بتعويذة من التعاويذ أو طلسم
 من الطلاس .. وارتخت عضلات الأستاذ المتحفزة .. لقد
 ملك زمام الطلبة وسيطر عليهم . ونظر اليهم في كبرياء وزهو
 وراح يتمشّي من اليمين الى اليسار .. ومن اليسار الى اليمين
 واطمأ يده في جيبه .. ثم استدار في عظمة وأمسك بأطراف
 أصابعه قطعة من الطباشير كأنه يمسك صرصاراً أو خنفساء ،
 وكتب على السبورة بالانجليزية : هيتروفس .. هيتروفس ..

ثم استدار الى الطلبة ونفض يده من الطباشير ووضعها في جيبه وأخرج ورقة مطوية فضّها وبدأ يقرأ .. وانكفات رموس الطلبة يدّونون محاضرة اليوم في علم الطفيليات .. وانقضت دقائق قليلة اتخذ فيها صوت الأستاذ نغمة واحدة رتيبة جعلت رأسى يدور، وشعرت برغبة في النعاس .. لكنني أفقت فجأة .. شيء ما قطع تلك النغمة الرتيبة المنظّمة .. وارفعت رموس الطلبة وتلفتت هنا وهناك لتعرف مصدر الصوت النشاز ..

ورأيته هو بانفه .. خطيب الدفعة .. واقفاً منتصباً بين الرموس .. وسمعته يقول : « هل لي أن أسال سؤالاً ؟ » وتوقّف الأستاذ وصوّب نحوه نظرة حادة كالخنجر لم أفهم منها هل ساءه أن يقطع عليه سلسلة الإملاء ، أو خشي أن يسأله سؤالاً لا يعرف جوابه .. وسمعت الأستاذ يقول له في صوت رفيع حادّ : « الاسئلة آخر المحاضرة .. ليست الآن » ! فردّ الطالب الخطيب بحماس لا يفارقه أبداً : « ولكنني لا أستطيع أن أتابع المحاضرة .. إنّه سؤال خاصّ بالعنوان » ..

وارتسمت على وجوه الطلبة نظرات الاهتمام والاستطلاع والتعجب .. وقال الأستاذ : « أيّ عنوان ؟ » فقال الطالب « عنوان المحاضرة » .. والتفت الأستاذ الى السبورة ثم الى الطالب وقال في آلية : « هيتروفس .. هيتروفس » وسكت الطالب وبلغ ريقه ثم قال : « هل الأسماء قليلة الى ذلك الحدّ ؟ » ألم تكن هيتروفس واحدة كافية ليسبّي بها الطفل ويكون الاسم الثانى شيئاً آخر بدلا من التكرار .. أم انها قليلة في الاسماء ؟

ودوت خمسمائة ضحكة أو أكثر اهتزّ لها المدرّج وارتعدت جدرانها .. وابتسم الأستاذ ابتسامة ساخرة عليها مسحة من العلم المزوج بالفلسفة وأخذ يتمشّي واضعاً يديه وراء ظهره

ومطرقاً رأسه كأنما يفكر في الردّ .. ثم توقف ونظر الى الطالب وقال في سخرية : ليست قلة في الأسماء ، ولكنها عادة عند بعض الطفيليات أن يستعمل الابن بنفس اسم أبيه .. وضحك الطلبة .. وارتسمت على وجه الأستاذ فجأة امارات الصرامة وتلاشت ابتسامته وعاد يتسلح ضد موجة الضحك والهرج بنظراته القويّة الحادة .. وقال للطالب في شدّة : اجلس ولا تسأل هذه الأسئلة السخيفة مرّة أخرى .. ثم نظر الى ساعته وقال غاضباً : لقد أضعت من المحاضرة عشر دقائق .. إنك طالب مشاغب .. ما اسمك ؟ وسكت الطالب وطأاً رأسه وقال بصوت خفيض : حسين حسين شاكر ..

وضيح الطلبة بالضحك .. وقصف المدرّج برعد القهقهة العالية .. ونظرت الى الأستاذ .. كان يضحك هو الآخر .. وفرحت .. فقد كانت المرّة الأولى التي رأيته فيها يضحك منذ دخلت الكلية .. أما خطيب الدفعة فقد خلع عليه الطلبة اسماً جديداً هو : هيتروفس .. هيتروفس شاكر .. وظلّ هذا الاسم العجيب يطارده حتى تخرّج في الكلية بعد خمسة عشر عاماً وأصبح طبيباً ناجحاً ..

السَّيِّءُ الصَّبِي

كان صوته العميق الهادئ ينساب في الليل ، ويصل الى
أذني دائماً هادئاً يريح أعصابى المرهقة من العمل طول اليوم ،
ويجعلنى أمدد ساقيّ على السور الحديدى فى استرخاء يشبه
النوم ، وأترك نظراتى المطمئنة تهيم فى صفحة النيل الساكنة
•• هدوء •• هدوء عجيب يخلفه صوته ، ونظراته ، وحركاته
فى كل مكان يوجد فيه •• وأنا أحب كل شيء هادئ فى
الرجل •• ليس دائماً ••

وارهفت أذنى الى الصوت العميق أستمع •• كان يحدثنى
عن نفسه ، عن طفولته ، وحياته ، وشبابه • عن أمه وأبيه ،
وأخيه •• عن تجاربه مع النساء •• عن عمله •• عن ماضيه ،
وحاضره ومستقبله •

• كان يتكلم ، وكنت أستمع ، وأنا أنظر فى عينيه الـ ••
العسلية •• لا •• البنيتين ؟ لا ليستا بنيتين • ما لونهما ؟
لا أدري •• ليستا سوداوين ولا زرقاوين ، ولا خضراوين ••
ولكن لهما مع ذلك لون أراه ، واحسّه ، وأفهمه •• لون غريب
عميق •• كأنه طبقات كثيفة كثيرة ، متراكمة بعضها فوق
بعض ، ليس لها قرار ، وليس لها سطح •• شيثان كرويان
يطلان على عالم معلوم ، وغير معلوم ، وينفذان الى عالم مجهول
وغیر مجهول ••

وسمعه يقول :

- ولكن لماذا أحكي لك كل هذا عن نفسي ..
ونظرت الى طبقات عينيه وابتنسمت .. فقال :
- لا أدري .. ولكنني أشعر أنني أريد أن أحكي لك كل شيء عني .. حتى تلك الأشياء التي كنت أخجل منها بيني وبين نفسي أريد أن أحكيها لك ..
وأسند رأسه الى ظهر الكرسي في راحة واسترخاء ونظر بعينه العميقتين في السماء .. وظلّ تائهاً في ذلك السواد الداكن فترة كأنما يبحث فيه عن شيء ، ثم التفت اليّ .. ونظر في عيني نظرة طويلة ، أحسست بها تمشي في كل كياني ، وتصيبني برجة غريبة كأنّ شحنة جديدة من الأحاسيس اجتاحت نفسي وجسمي ..
ورأيتّه يقترب مني .. وامتدت أصابعه تبحث عن يدي .
وأمسكها بكلتا يديه .. واستكانت يدي بين كفيه الكبيرتين الدافئتين كما يستكين العصفور الوليد في صدر أمه ..
لكنّها لم تكن سوى لحظة ، لحظة استكانة قصيرة غافلت فيها عاطفتي عقلي ، وتسربت مني تريد أن تمارس حقّها في أن تعيش .. وأن تستكين .. وأن تهدأ .. وأن تضع رأسها على صدر عريض حنون .

لم تكن سوى لحظة تنبّه بعدها عقلي ، وشدّ عاطفتي من لجامها فأخضعها .. وجذبت يدي من كفيه الدافئتين الكبيرتين فشعرت بالبرد .. كأنني تعرّيت في برودة الليل .. كأنني فقدت مأوى في يوم مطير .

وانتفضت .. انتابني شعور بالخوف ، ذلك الخوف الذي يشعر به المرء حينما تتولّد في نفسه حاجة جديدة الى شيء ضروري قد لا يستطيع الحصول عليه ، أو قد يضيع منه لو أنه حصل عليه ..

وقادني الشعور بالخوف الى رغبة في التمرّد
الذي يحسّ به العاجز ليضفي على نفسه قوّة من عنده ..
وجدتني من حيث لا أدري أغضب .. وقلت له في ثورة :
- ماذا تريد مني ؟
قال في حنان :
- أحبك .. أحبك .. أحبك ..
قلت في ثورة :

- هل نسيت أنك رجل متزوّج ؟ إنني لا أقبل هذا الحبّ
لأنني أعرف نهايته ..
قال في هدوء :
- وما نهايته ؟
- ستأتي بعد فترة وتقول لي .. لن أستطيع التخلّي عن
زوجتي ..

- لن أقول ذلك ..
- ولن أقبل منك أن تتخلّى عن زوجتك ..
وسكت قليلا .. ثم قال :
- وما الذي يرضيك الآن ؟
- ألا نتقابل ..
- أبدأ ؟ ..

- أبدأ ..
- هل هذا هو الحلّ ؟
- ليس أمامنا سواه ..
- إنني أوافق على شرط ..
- ما هو ؟

- إن تقابليني حينما تريدان أن تغيري هذا القرار ..
وافترقنا .. ومضى يوم .. واثنان .. وثلاثة ..

وفى نهاية اليوم الثالث جاءني صوته العميق الصادق
يقول :

- أريد أن أراك ..

- متى ؟

- الآن ..

وجلست الى جواره أستمع الى صوته العميق الهادئ ،
وأشعر براحة تسري في أعصابي المرهقة ، فأمدد ساقي على
السور الحديدي في استرخاء يشبه النوم ، وأترك نظراتي
المطمئنة في صفحة النيل .. قال :

- لن يكون بعد ذلك قرارات ..

وضحكت .. فقال :

- أتضحكين .. ماذا فعلت في الأيام الثلاثة ؟

- وماذا فعلت أنت ؟

قال وهو شارد وعيناه في السماء :

- تعذبت ..

وشعرت في هذه اللحظة أنني أريد أن اقترب منه ..
وأمسك رأسه بين يدي وأسنده على صدري لأمنع عنه
العذاب ..

ونظر في عيني .. وكأنه قرأ رغبتى فقال في صوت
غضوب :

- لماذا تحبين الرجل الضعيف ؟

- لأننى أشعر أنه يحتاج إليّ ..

- إننى أحتاج إليك ..

وانتابنى مرة أخرى الشعور بالتمرد فقلت له فى ثورة :

- أنت لست فى حاجة إليّ .. ستعود بعد قليل الى

زوجتك ..

وسكت فترة طويلة ، وعيناه تفتشان فى ظلمة الليل عن

الإجابة .. ثم قال :

— أنت لا تعرفين .. أن الطاقة التي يشحنها الحب لا يفرغها
 الا الحب ..

وأعجبني كلامه .. لكنني رددت قائلة :

— هل طاقة الحب تفرغ ؟

— لا .. إنَّ الحب يشحنها من جديد ..

وسكت قليلا لأفكر .. وأحسست به يقترب مني ويقول :

— خبريني ماذا تريدن ؟

فقلت في ذعر وأنا أراه يقترب مني أكثر وأكثر :

— لا شيء ..

قال في شدة :

— مامعنى لا شيء هذه ؟ أنا لست مستعداً لأن أضحي بحياتي
 لك .. ساكافح من أجله .. لن أضيع فرصة حياتي ،
 سأتحلى عن كل شيء الا أنت .. هل تتزوجيني ؟

وسرت رجفة في كياني ولم أشعر إلا وأنا أضح يدي على
 فمه وأقول :

— لا تقل ذلك ؟ لا أستطيع ؟ .. هل نسيت زوجتك ؟

— إنني أشعر أنني أرتبط بك أنت ولا أرتبط بها .. إنني
 لا أستطيع أن أتخلى عنك .. لم يكن زواجي إلا وظيفة ألقيت
 على عاتقي ..

— لا .. لا تقل هذا .. ساعود الى القرارات مرة أخرى ..

قال في حزم :

— أنت لا تملكين إصدار هذه القرارات وحده .. إنك
 لم تعودى وحده .. لقد ارتبطنا .. أي قرار إن كان هناك
 قرارات يجب أن نصدده معاً .. ونوافق عليه معاً ..

واقتربت يدها مني تبحثان عن يدي .. وعثر عليهما ..

واستكانت يدي بين كفيهما الكبيرتين الدافئتين كما يستكين

العصفور الوليد في صدر أمه •
 ومرة أخرى لم تكن سوى لحظة •• لحظة استكانة قصيرة
 غافلت فيها عاطفتي عقلي وتسربت مني تريد أن تمارس حقها
 في أن تعيش ••
 لحظة قصيرة لمعت كالبرق ثم أدبرت سريعاً •• وتنبه عقلي
 وانتزع قلبي من بين كفيه الحائتين الدافئتين ••
 ونظر إليّ فنظرت بعيداً عنه في صفحة الليل •• وسمعت
 يقول في مرارة والم :

- إنك لم تحبيني !
 وافترقنا بلا قرار على ألا نعود •• ومضى يوم •• واثنان •
 وثلاثة ، وأربعة ••

وبت الليل مؤرقة أفكر •• وبدأ لي السرير خشناً كأنه
 مصنوع من الحجر ، وبدأ لي الوسادة يابسة كأنها مليئة
 بالمسامير •• وبدأ لي الليل طويلاً ممتداً ، كأنه لن ينتهي ••
 وعيناي الحمراوان المسهدتان تجوبان في ظلمة الليل تبحثان
 عن أشياء أحسها ولا أفهمها ، وأفهمها ولا أصدقها ، وأصدقها
 فأعود لا أفهمها ••

لماذا قلت له لا ؟ •• لماذا تخلصت عن حياتي ؟
 وتقلب كياني المرهق ينشد مكاناً على السرير أقل خشونة ،
 وتحرك رأسي الثقيل على الوسادة يتلمس بقعة خالية من
 المسامير •• سأطلبه في الصباح وأسحب هذه اللا ••
 وسبقني •• كان يسبقني بضع دقائق • وجاءني صوته
 الحبيب يسألني عن صحتي •• وقلت له :

- ماذا فعلت في تلك الأيام الأربعة ؟

قال لي :

- وماذا فعلت أنت ؟

قلت له :

— تعذبت ..

وسكت قليلا .. فقلت له :

— أريد أن أراك ..

— متى ؟

قلت :

— الآن ..

وانساب صوته العميق الهادئ في أذني يريح اعصابي ،
ويجعلني أمتد ساقني على السور الحديدي في استرخاء يشبه
النوم ، وأترك نظراتي المطمئنة تهيم في صفحة الليل ..

وسألني وهو يبتسم :

— لم تقولي كيف تعذبت ؟

ونظرت في طبقات عينيه الكثيفة الكثيرة ثم قلت له :

— لماذا تحب المرأة الضعيفة ؟

قال :

— أنا لا أحب المرأة الضعيفة أبدا .. ولكني أحب المرأة

القوية حينما تضعف ..

وأحسست فعلا أنني أضعف .. وأنني لا أستطيع أن أقاوم
كفّيه الكبيرتين الدافئتين ، ورأسي الثقيل المتعب وهو يميل
ليستريح على صدره العريض ..

لحظة استسلام بعد أيام من الصراع .. لحظة انتصار العاطفة
على العقل بلا خجل .. بلا عقد .. بلا صراع .. أروع لحظة
في الحياة ..

ومضت اللحظة ولم أعرف مداها .. خلت أنها عمر جديد
يضاف إلى عمري .. عمر جديد كامل له ماضٍ ، وله حاضر ،
وله مستقبل ..

ومضت اللحظة رغم روعتها .. ورغم عمرها .. مضت كما
يمضي كل شيء رائع في الحياة وانتهت كما ينتهي أي عمر مهما
بلغ مداه ..

وفتحت عيني ، واسترددت يدي ورفعت رأسي ، وأمسكت
حقيبتى ، ووقفت ..

قال :

- ماذا حدث ؟

قلت :

- كل شيء ينتهى ..

- ولماذا تهربين ؟

- إنه شيء صعب ..

- ما هو ذلك الشيء الصعب ؟

- إن كل شيء ينتهى ..

وسمعتة يضحك فى مرارة وسخرية ويقول :

- انتهيت من مشكلة زوجتي فخلقت مشكلة أصعب .. لماذا
تعاملين نفسك بهذه القسوة ؟ لماذا تتركين عقلك وعاطفتك
يتصارعان ؟

ونظرت فى أسى الى صفحة النيل فاقترب مني ، وأمسك
يدي فى شدة وقسوة وقال :

- لن تكسبي شيئاً من هذه المعركة لأن ميدانها الوحيد هو
نفسك ، نصف ذاتك يصارع النصف الآخر .. والنتيجة
بالنسبة لك شيء واحد .. هو أنك تخسرين نصفاً دائماً ..
ونظرت فى أعماق عينيه أفتش عن شيء من هذا الصراع
عنده وقلت له :

- وأنت ؟ ألسنت مثلي ؟

قال فى ثقة غريبة :

- لا .. إن ذاتي لا تتصارع .. إن عقلي هو قلبي ، وقلبي
هو عقلي ..

واحسست أنه أكثر منى .. وأقوى منى .. أكثر طبيعية
.. وأكثر بشرية .. أكثر انسانية .. ووددت فى تلك اللحظة

أن ألقى نفسي بين ذراعيه القويين وأقول له :

- علمني .. علمني !

وكانما أحس رغبتي فنظر إليّ وكأنه يحتويني بكل كيانه
وقال باسمي :

- سأعلمك ولنبدأ من هذه اللحظة ..

واعتدل في كرسيه ، وقال كأنه أستاذ يخاطب تلميذه :

- والآن وقبل كل شيء يجب أن تعترفي .. هل تحبينني ؟
وكان جاداً .. وكان راضياً .. وكان قوياً .. وكان محباً
ونظرت في أغوار عينيه العميقتين فأحسست أنه .. أنه رجلي
الوحيد وقلت له :

- نعم أحبك ...

ورأيت يبتسم ابتسامة عريضة ثم يضحك في انطلاق غريب
وسمعتة يقول وهو ينظر في عينيّ بحنان كبير :

- هل كان شيئاً صعباً ؟

قلت وأنا أنظر بعيداً عن عينيه حتى لا يكتشف كذبي : /
- أبداً ؟ لم يكن شيئاً صعباً ..



مجرد صورة

صعدت هند سسّم القطار وقفزت داخل الديوان لتلحق بالمقعد المجاور للنافذة، تماماً كما كانت تفعل وهي طفلة ، لم تغيّرها عشرة أعوام طويلة كبرت فيها واستدارت ونضجت ونالت الليسانس وتزوّجت .. لكنّها هي هند التي يسعدّها أيّ شيء ، وأقل شيء ، مثل السفر وركوب القطار والجلوس بجوار النافذة ..

وجلس الى جوارها زوجها حسين بعد أن شبّ على قدميه ، ووضع الحقيبة فوق الرفّ ، ونفض يديه بتأنٍ .. إنه هادئ الأعصاب كما يبدو من ملامحه الهادئة فيما يشبه الابتسامة ، وحركاته البطيئة كأنّه لا يتعجّل شيئاً .. واثق أن كلّ شيء يأتي في أوانه ..

وتحرّك القطار وهند تطلّ من النافذة وتراقب بيوت القاهرة وهي تتراجع الى الوراء ، والقطار متّجه ناحية الشمال الى الاسكندرية ..

وجفّت الابتسامة على شفّتيها وانتشر على ملامحها وجوم سريع .. هذه أوّل مرة تسافر الى الاسكندرية بعد زواجها .. وكانت آخر مرة في صيف العام الماضي بعد أن نالت الليسانس بدرجة « جيّد جداً » ، وعيّنت في وظيفة ممتازة بعد النجاح بشهر واحد ، وقبضت أوّل مرتّب ستة عشر جنيهاً ، وأخذت

أجازة مرضية وسافرت الى الاسكندرية .. وهناك وسط
الأمواج الباردة كانت تقذف جسمها الساخن وتنطلق بذراعيها
وساقها . تسبح كأنها طائر يعوم فى الهواء ثم تخرج من الماء ،
وتنثر شعرها الناعم ليقذف بالماء عنه ، وتمتد جسمها المبلل
تحت الشمس . وتضع رأسها على الرمل الدافئ وعيناها
نحو السماء تتقلبان وتفتشان فى الزرقة العميقة الداكنة عن
أشياء .. أشياء كثيرة تفكر فيها أولها سعادتها .. سعادتها
هي .. لقد حبست نفسها عشرة أعوام فى المدرسة والجامعة
والبيت لتذاكر وتنجح وتنال الليسانس وقد تحقّق لها ذلك
.. ماذا بقي إذن ؟ لا شيء سوى أن تعيش ، أن تطلق من
نفسها ما كانت تكبله .. ولم تكن تكبل سوى مشاعرها ..
أحاسيسها كامرأة .. رغباتها ، استطلاعها ، شقاوتها ، وكانت
شقية بطبيعتها .. متحفزة متحمسة .. مليئة بالحياة متعصبة
لها ..

وقضت ثلاثين يوماً فى الاسكندرية تساوى ثلاثين عاماً من
عمرها الذى فات ، عرفت أنواعاً كثيرة من الرجال ، الشاب
الذى يدلي خصلة من شعره على جبهته ويلبس المايوه الضيق
ويتهختر أمام الكبان يطرقع باللبان فى فمه ، والسلسلة فى
يده .. والرجل المتفلسف الذى يلبس الشورت ويجلس
وقوراً أمام الكابن ويمسك كتاباً بالقلوب .. والرجل الهائم
على وجهه يزوغ بصره هنا وهناك وتخرج من بين شفثيه من
حين الى حين تقليلة أو تعليق .. رجال فى كل مكان يكثر
ويتكاثرون فى الصيف كأنهم ذباب .. وهى لم تعرف الرجال
وان كانت قرأت عنهم فى الكتب .. لكنّها فى هذه الأيام
القليلة تريد أن تراهم عن كثب .. أن تسمع كلامهم ، أن تقرأ
أفكارهم ؛ أن تلمس عضلاتهم وشواربهم .. ولم تكن تريد
واحداً بالذات .. كان فى خيالها رجل .. فتى أحلامها ..

لكنها لم تكن تبحث عنه أو أنها أجّلت البحث عنه حتى ترى
وتتفرّج وتتمعّن في الفرجة .. وأصبح كلّ يوم من هذه الأيام
الثلاثين مليئاً بالمواضيع مشحوناً بالشخصيات المتناقضة ..
في الصباح تسابق في الماء شاباً مائعاً يخيّل اليها أنه فتاة
قصّت شعرها .. وتحت الشمسية على الرمال تجلس مع
رجل يأكل الكلام كأنه من جوعه للحمّ الأدبي يلتهم لسانه
وينظر اليها كخريت طلع تواء من الماء .. وفي المساء تجلس
في الكازينو المطلّ على البحر مع رجل أشيب يخلط الأدب
بالفلسفة والحب بالموت كأنه يضرب الرمل ويخط بالودع . ولم
تكن تريد إلا أن تتفرّج على الرجال ، أن تعرفهم، أن تدرّسهم .
ووقف القطار فافقت من خيالها .

ونزلا من القطار، وهدت تتأمل محطة سيدي جابر بوجوم، لقد
انتهى صيف العام الماضي ، وانتهت معه كلّ مغامراتها ولم يبق
في نفسها شيء بالمرّة سوى مفاهيم دخلت رأسها عن الحياة
والناس .. وبعد الثلاثين يوماً عادت الى القاهرة لتلتقي صديقة
بفتى أحلامها حسين وتزوجه .

ونظرت الى زوجها ورات ملامحه الهادئة الباسمة ، وأحسّت
أنها تثق فيه كما تثق دائماً ، لكنها لم تكن تدري ما سرّ ذلك
الوجوم بداخلها ..

إنها لا تخاف شيئاً، وضميرها لا يؤنبها على شيء .. كانت
كلّها مغامرات بريئة .. مجرّد تجارب نفسية لا تحرك
إلا تفكيرها وتأمّلاتها .. لم يمسن قلبها أو وجدانها إنسان ولم
يهن أنوثتها رجل .. كانت كالعالم العجوز الذي يشترح في
معمله مجموعة من الضفادع والفيضان .. وعلى أيّ حال، فقد
انتهى الصيف ، ومات في الماضي كما يموت أيّ شيء ولا يبقى
له أثر .. وعادت اليها طمانينتها حينما تذكرت مسألة الموت
هذه .. كانت تستخدم ذكرى الموت دائماً لحلّ مشاكلها لأنها

تشحنها بموجة استخفاف بالحياة ، وما فيها من مشاكل
واهتمامات وعقد .. وتقول لنفسها مادام الانسان حتماً
« ميتاً » فكل ما في حياته حين تافه .. وبهذا استخدمت
ذكرى موت جدّها في التخفيف من وطأة حزنها على تأخرها في
التوجيهية ، واستخدمت ذكرى موت أمّها في التخفيف من
حزنها على موت أبيها وهكذا .

ولكن هذه الحالة لا تلبث لحظات كأنّها ومضات روحية قوية
لا تلبث أن تنطفئ ، وتتركها « إنسانة » عادية في مهبط
الحياة ، تحزنها أشياء صغيرة مثل فقدان نصف ريال ويسعدها
أيضاً أشياء تافهة مثل السفر، وركوب القطار والجلوس بجوار
النافذة ..

وقضيا أياماً سعيدة في الإسكندرية .. الصباح كله للبلّاج
والبحر ، والمساء كله للسهر والفسح والرقص .
حتى كان صباح ، وهند وحدها تحت الشمسية ، تمدد
جسمها المبلل بالماء على الرمل الدافئ وعيناها ناحية السماء
لا تتقلبان ولا تفتشان عن شيء .. إنها سعيدة في حياتها
ولا تطلب مزيداً من شيء .. وفجأة وقف أمامها مارد طويل
حجب عنها السماء والبحر ونهضت برأسها وهي تصيح في
دهشة : « مين ؟ »

وردة عليها صوته الغليظ : « مين ايه نستيني ؟ »
وابتسمت في عدم اهتمام قائلة : « تقريباً »
واحمرّ وجهه من لهجتها ونظر إليها من قدمها الى رأسها
كأنه يفحصها بلا إعجاب ثم قال : « تقريباً يعني ايه ؟ »

وغاظتها نظرتة الجريئة الوقحة ولهجته الشديدة الآمرة . كان هو
كذلك دائماً .. جريئاً وقحاً معتدّاً بنفسه مغروراً .. لكنّها لم
تضق به كما ضاقت هذه المرة .. كانت في العام الماضي لا يهتمها
شيء سوى أن تتفرّج .. وكانت تقبل الناس على علاقتهم

وبأخطائهم وعيوبهم لأنهم كانوا لا يهتمونها في شيء .. لكنها اليوم ، وبعد أن أحببت وتزوجت ، يهتم زوجها وتهتمها سعادتها وهي لا تسمح لأي رجل أن يكلمها بلهجة شديدة أمرّة، إلا زوجها في أوقات غضبه فقط ويعتذر بعدها .. ولكن هذا الرجل من يكون ؟ ذلك الشاب المستهتر الذي قابلته في الصيف الماضي ، والذي لا مبدأ ولا عمل له .. الذي يظهر على البلاج في موسم الصيف كما يظهر التين الشوكي في شهر يوليو والبلح في سبتمبر .. مجرد كائن حي يمشي على رجليه ويكسو صدره شعر أسود ويلبس في أصبعه الصغير خاتماً من الماس ، وأبوه كان باشا أيام الباشوات ..

واحمرّ وجهها من الغيظ وهي تراه يثني جسمه الطويل ويجلس في برود بجانبها على الرمل ، وانتفضت واقفة على ركبتيها وهي تقول بشدة : « تسمح تقوم من هنا ! » وأصابه برود أشدّ لثورتها فاجاب بهدوء وعناد : « مش قايم ! » ولم يشعر إلا ويدها ترتفع وتهوي على وجهه في لطمة قوية وهي تأمره بلهجة حادة كالكرباح : « اتفضل قوم بسرعة ! » واحمرّ نصف وجهه الذي أصابته اللطمة واصفرّ النصف الآخر ، ونظر إليها نظرة ارتعدت لها مفاصلها .. نظرة فيها دهشة وشرّ وحقد .. نظرة رجل مصاب في كرامته الى أبعد حدود الإصابة .. وفرد جسمه الطويل ، وقام في تناقل ، ومشى خطوتين ثم استدار اليها، وقال في صوت متغير غريب : « لازم أدفعك تمن الصفعة دي ! »

ودق قلبها بعنف .. لماذا يقول هذا وماذا يملك حتى يستطيع أن يفعل ضدها شيئاً ويغرمها ثمناً أيّ ثمن؟ .. وغاب لون الدم من وجهها وارتعشت أصابعها في الرمل ، وأحسّت بيد قوية تمسك قلبها ، لقد تذكّرت الصورة ، الصورة التي التقطت لها وهي جالسة بالمايوه وبجوارها ذلك الشاب

يوشوشها في أذنها .. كانت أيامها تحيا في فكرة معينة عن الحياة تريد أن تعيش فيها فترة وقد انتزعت نفسها من بين البشر لتتفرج عليهم ، وهي ليست منهم، فماذا يضربها من صورة أو آلاف الصور .. مجرد ورقة عليها رسومات .. لكنها الآن تحسّ شيئاً آخر ..

صحيح أنها ورقة ولكنها تسجّل جزءاً من حياتها .. تسجّل موقفاً لها مع رجل يستطيع من يراها أن يحكي عندها ألف قصة وقصة .. وشعرت بالخوف فتذكرت الموت وقالت لنفسها: الناس تموت كل يوم .. واليوم الذي يفوت لا يعود مرة أخرى أي أنه يموت .. ولكن هذا غير صحيح .. الماضي قد لا يموت، قد تسجله أشياء تافهة مثل ورقة أو صورة فيبعث حياً من جديد .. ورقة حقيرة صغيرة يذيقها قليل من ماء البحر، لكنها تقف أمامها كأنها ثلاثون يوماً كاملة بكل دقائقها وثوانيتها وكل حوادثها وشخصياتها ومفارقاتها .. هذه الورقة في جيب هذا الرجل المغرور .. إنها سلاح يمكنه أن يستعمله ضدها .. والرجل الحقير لا يلهب حقارته مثل إهانة امرأة له ..

وقضت هند صباحاً سيئاً .. تفكر في الصورة وتتصور الرجل وهو يعطي زوجها الصورة ويحكي له قصة حب خرافية وأي قصة حب يمكن أن تتركب على صورة رجل وامرأة يتهاامسان .. وفجأة ، أحسّت هند بيد على كتفها فانتفضت .. كان هو زوجها وقد عاد ومعه السندوتشات وزجاجة بيّرة .. ووضع الأشياء وهو يقول لها باسمّاً :

« انت نمت واللا ايه ؟ » ..

وابتسمت في إعياء وهي تردّ مازحة كعادتها : « ايه » .. وضحك زوجها وهو ينظر في عينيها : « دمك خفيف .. عمرك ما تنسى النكتة دي أبداً » ..

ونظرت إليه هند بعناية كأنها تراه لأول مرة وتفحصه

وتفتش في عينيه ويديه عن مدى حبّ لها وثقته فيها .. ورات
عينيه الباسميتين ويديه الهادئتين الراضيتين فهذأت .. إنّه
حسين .. زوجها الذي أحبّته ، والذي يملأ حياتها ، ويستولى
على قلبها ، وتحسّ بكل الرجال الى جانبه كأنهم نساء ..
وأعادت النظر الى عينيه ويديه .. إنّه رجلها وحبيبها، ولكن
ماذا يكون من أمره اذا رأى الصورة ؟ .. وأحسّت بالقبضة
تمسك قلبها .. وسمعتة يقول باسمًا :

« يا لالا يا هند قربي، أنا متّ من الجوع ! » ..

وأعاد لها صوته العميق الحنون ثقّتها فيه .. إنّه لن يخذلها
.. هذا الرجل لا يمكن أن يفصلها عنه آلاف الناس تتراصّ
بينه وبينها، فما بالها بقطعة من الورق الصغير مطبوع عليها
رسومات . أيّ رسومات ..

وعاد اليها وهدوؤها كاملاً فأكلت ، وشربت البيرة، واستلقت
بجوار زوجها على الرمل وطال بينهما الحديث كما يطول دائماً ..
وفي صباح اليوم التالي كانت قد نسيت تماماً الرجل
والصورة لولا أنّها لمحت زوجها، مقبلاً عليها من بعيد ممسكاً بيد
رجل طويل ما أن تبينته حتّى عادت القبضة الى قلبها تعصره
بشدّة .. ونهضت من رقدتها على الرمل وجلست متحفّزة
تستعدّ لمواجهة الأمر وتستجمع قواها الهاربة في أركان نفسها
.. ووصل زوجها وجلس بجوارها بينما ظلّ الرجل واقفاً ..
ورأت هند الصورة في يد زوجها فارتعدت وبلعت أنفاسها
لتبدو هادئة ونظرت الى زوجها .. الى عينيه ويديه لتطمئن على
حبّ لها وثقته فيها .. كان كما هو هادئاً باسمًا لم تتغيّر
ملامحه الا من معنى طفيف ساخر ..

ووضع حسين الصورة في جيب قميصه بتأنٍ، ونظر الى
زوجته وهو يبتسم قائلاً : « تصوّري يا هند الجدع يمشيني
لآخر البلاج عشان يوريني صورة » ونظر الى الرجل نظرة

ساخرة عميقة واثقة وقال له : « حد قالك اني غاوي صور ٠٠؟
هى صورة لطيفة فعلا لان فيها هند لكن انت تبتت نفسك ٠٠ »
وسكت حسين ووضع يده على جيبه وربت على الصورة
برفق وحنان وقال له : « خلاص يا سيدى الصورة وصلت
مكانها ٠٠ تقدر تروح ٠٠ »

وبعدما اختفى الشاب من أمامهما نظرت هند الى زوجها في
دهشة ٠٠ فرأت عينييه الباسمتين فى عينيها وأحسنت يديه
الحبيبتين اللواتي على يديها وسمعت صوته الدافئ الحنون
يقول لها : « أما مغفل صحيح » ايه يعنى صورة ٠٠ وحتى لو
كان فيه حاجة انت عارفة انى لا يمكن أحاسبك على حاجة قبل
ما تعرفينى ٠٠ »

ونظرت هند فى عينييه ودموع الفرح فى عينيها ٠٠ إنها لم
تخطئ حينما عرفت من أول وهلة أنه فتى أحلامها ٠٠ إنه
رجلها الذى يثق فى نفسه وفيها ٠٠ رجلها الوحيد الذى
استطاع بقوة الناضجة الواعية أن يمسّ وجدانها ويهزّ
أنوثتها ٠٠

وابتسمت وهى تقول : « دى كانت مجرد مقابلات على
البلاج » .

فقال وعلى جبهته تكشفية وكشيرة وفى عينييه ابتسامة : « كانت
شقاوة يعنى ٠٠! »

وردّت بسرعة : « شقاوة ببراءة ٠٠ »
واقترب منها وقبل كتفها فى حنان وهو يهمس فى أذنها :
« أنا عارف يا هند ايه ٠٠ » ثم نظر فى عينيها وهو يسألها
باسما ككل مرة : « والا ايه ؟ » وهو يعرف أنها ان تنسى أن
تقول له : « ايه » فعلا كان . وضحكا معاً للمرّة الألف على
النكتة ٠٠ حتى فى هذه المواقف الخطيرة لا تنسى هى هذه
النكتة الصغيرة .

الدوسيه الضائع

دقت الساعة التاسعة صباحاً حينما كان الدكتور خالد يسير في الممر الطويل الضيق المظلم الذي يقود الى حجرة الارشيف وبين شفتيه سيجارة لم يشعلها بعد ، وفي نظراته كآبة حبيسة لم تجد طريقاً الى الانطلاق ..

وأخرج من جيبه علبة الكبريت وأشعل السيجارة ثم ألقى بعود الكبريت على الأرض الاسفلت، وهو يلعن هذا الممر المظلم الكئيب الذي قاده اليه الحظ السيئ. ٠٠ منذ ثلاثة شهور ، يأتي صباح كل يوم ، ويتحسس بقدميه درجات السلم المتهتمة حتى يصل الى الممر الضيق الطويل كأنه سرداب في بطن الأرض ، ويرى « الدولاب » المعدني الذي يرتكن على الحائط اليمين ، والنضد الخشبي الذي وضع الى اليسار ، ثم الباب المغلق الى اليسار أيضاً ، ولا يعرف لماذا هو مغلق والى أي سرداب يقود .. وأخيراً يأتي الباب المفتوح عن اليمين وعليه لوحة نحاسية صغيرة كتب عليها « الارشيف » .

وتنهّد الدكتور خالد وهو يدخل من الباب الصغير الى حجرة مظلمة رطبة ، يبتلع نصف مساحتها تقريباً دولاب خشبي كبير له أرفف كثيرة تختفي تحت عدد لا يحصى من الدوسيهات ، ويشغل النصف الآخر مكتب خشبي كبير ، أسود اللون ، ينوء

نحت أكوام من اندوسيهات . ومن خلف هذه الأكوام يظهر رأس محفوظ افندي موظف الأرشييف بنظارته السميكة البيضاء وشعره الأبيض . يرتكن على جسد نحيل يفرق في بدلة واسعة قدبمة كأنها صُنعت له منذ عشرين أو ثلاثين عاما حينما كان شاباً ممثلي الجسد لم تنحل وبره السنون بعد .

وكان محفوظ افندي كعادته يكتب شيئاً حينما دخل الدكنور خالد . . انقصت ثلاثة شهور بأكملها والدكتور خالد يأتي الى هذه الحجره صباح كل يوم ولا يرى محفوظ افندي الا وهو جالس يكتب ونظارته البيضاء السميكة تتدلى على ارنبة أنفه فيخيل إليك في تلك اللحظة أنه لا يرى شيئاً إلا أنفه . لكنه حينما يرفع رأسه ويمر بئس بعينه في الفضاء ثم يقول بصوته الرفيع: أهلا دكتور خالد اتفضل . تعرف في هذا الوقت أنه قد يرى شيئاً آخر .

وجلس الدكتور خالد كما تعود ان يجلس على الكرسي الخشبي الوحيد في الحجره ، باستثناء كرسي محفوظ افندي بالطبع إذ له ثلاثة أرجل فقط تركه محفوظ افندي جانباً لمن تسوقه المائدة لينزل ضيفاً عليه .

واسند الدكتور خالد الكرسي الى الحائط وجلس عليه بمهارة اكتسبها بعد خبرة ثلاثة أشهر، وقال لمحفوظ افندي جملته التقليدية : « صباح الخير يا محفوظ افندي ، خير ان شاء الله ، ياترى لقيت الدوسيه ؟ » وتلملم محفوظ افندي في كرسيه وهو يهرك يديه وقال بصوته الرفيع : أبدأ والله يادكتور خالد ، انا مش عارف الدوسيه ده راح فين ، كل يوم أفرز الدوسيهات الي سيادتك شايفها دي والي في الدولاب الكبير ده والدوسيه بتاعك مش ناين ابدأ ، حاجة غريبة . زى مايكون عفريت خده، بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وأخرج محفوظ افندي مسبحة صفراء من أحد ادراج مكتبته ، وأخذ يبسم على كل حبة من حباتها ويصلي على النبي ، ثم انتهى منها بعسد

دقائق وأعادها في خسوع الى الدرج ، والتفت الى الدكتور خالد وقال : « أنا رأيي يا بيه انك تيجي هنا بكره يمكن ربنا يكون سهل واعتبر على الدوسيه منا والا هنا »

وقال الدكتور خالد وهو ينفث دخان سيجارته في آسى :
« لا بكره ولا بعده ، خلاص مافيش فايده »

واهتزت نظارة محفوظ افندى وهو يفعل قائلا : « لا يا بيه ماتقولش كده مافيش حاجة بعيدة على ربنا أبدا ٠٠ ربنا قادر على كل شيء ، مين يعرف بكره تيجي تلاقى الدوسيه ظهر فجأة كده على وش الدوسيهات ، الإنسان لازم مايفقدش الأمل في ربنا بسرعة كده يادكتور » .

وقال الدكتور خالد وهو ينفخ : « بسرعة !؟ يا شيخ حرام عليك ، مش مكفيك ثلاثة أشهر باجي هنا كل يوم ٠٠ ثم ان ربنا ماله يا أخى » ؟

وكانما أطلق الدكتور مقدوفاً نارياً في وجه محفوظ افندى أو فجر في جسده قنبلة يدوية فانتفض محفوظ افندى على كرسيه وارتجج جسده النحيل داخل البدلة الواسعة وقال : « أستغفر الله العظيم ، أستغفر الله العظيم ٠٠٠ »

ثم التفت الى الدكتور خالد وقال في عتاب ولوم شديدتين :
« ربنا ماله ١٩ بقى ده كلام تقوله يادكتور ؟
وانفجر الدكتور خالد غاضباً :

« هو أنا قلت حاجة على ربنا يا أخينا ؟ أنا ماكفرنش والله الحمد وان كانت المصيبة دى تكفر الى عمر ماكفر »

وقال محفوظ أفندي في بلادة : « مصيبة ايه كفى الله الشر ؟ وش الدكتور خالد شعر رأسه وصاح قائلاً : « بقه انت لسه مش عارف مصيبة ايه ؟ مصيبتى ا مصيبة الدوسيه ٠ الدوسيه الى لابس طاقية الاخفاء مصيبة البعثة الى حتروح منى ! » .

وبريش محفوظ ببقايا عينييه المتناكلتين من وراء الزجاج السميك وقال : « بعثة ايه يادكتور ؟ » ويرد الدكتور خالد :

« بعثة أمريكا عشان آخذ الدكتوراه »
واندهش محفوظ افندي ، واتسعت المسافة الرفيعة الضيقة
بين جفنيه وقال: « تاخذ الدكتوراه ؟! هو انت لسه ماخذتهاش؟
أمال اسمك الدكتور خالد ليه ؟ »
وهز الدكتور خالد يديه فى زهق وقال : « لاده موضوع
شرحه يطول ، المهم ان ضياع الدوسيه ح يضيع على البعثة »
وقال محفوظ افندي فى غباء : « ليه يايته ؟ »
ووقف الدكتور خالد وقد نفذ صبره وقال : « أوف اربنا
يطولك ياروح ! »
تلقت حواليه فى حيرة وقال يخاطب نفسه « وبعدين الدوسيه
ضاع ! مش معقول ! والبعثة ! آخ ياني ! »
ونظر الى محفوظ افندي يحاول أن يفتش فى جزء منه عن قبس
من الأمل فى العثور على الدوسيه ، لكنه وجده وقد انكفا على
الشيء الذى يكتبه دائماً ونظارته السميكة متدلّية على أذنه وكأنه
نسي وجوده تماماً
وخطرت للدكتور خالد فكرة وهو واقف هكذا، فانتعشت
روحه بعض الشيء ، وخلع سترته ووضعها على الكرسي الخشبي
وشمر عن ساعديه وبدأ يفرز بنفسه الدوسيهات واحداً واحداً ،
ومحفوظ افندي غائب عن العالم فى الشيء الذى يكتبه . .
وانقضت ساعات والدكتور منهك فى البحث حتى تصبّب
منه العرق وسعر باله فى أصابع يديه ، لكنه كان متحمساً يعمل
بأمل جديد أنقذه من الشعور الكئيب باليأس وانتهى من
الدوسيهات التى فوق المكتب فانتقل الى الدوسيهات المتراصة
فى الدولاب وأكمل فيها البحث والتفتيش .
ولم يجاء شيئاً . . وعاد متعباً يائساً ولبس سترته وجلس
على الكرسي بعد أن أسنده الى الحائط ونظر فى أسى الى محفوظ
افندي وقال : « حاجة تطير العقل الدوسيه بتاعى مش هنا ! »
وتهلّل وجهه محفوظ افندي وقال : « عشان تعرف إني ماكدبش

أبداً ، وأنا عارف شغلي كويس خالص ، وحافظ الارشيف ده ورقه ورقة ، ده أنا بقى لى خمسة وثلاثين سنة فى الشغلة دى يادكتور ٠٠ » وأطرق الدكتور خالد فى حيرة وأسى ، ونظر محفوظ أفندي الى النافذة ثم صاح : « ياه ! ده الشمس راحت من فوق الحيطه الى جنبنا »

ونظر الدكتور فى ساعته ثم قال : « اثنين ونص ٠٠ »
وشد محفوظ أفندي نفسه من فوق الكرسى بصعوبة وقال وهو يتأوه : آه ياكعبى الشمال ٠٠ شوف يادكتور أنا ادبت الحكومة نص ساعة زيادة من وقتى ٠٠ لكن معلش أنا مش بادقق ، ربنا قال اعمل الخير وارميه البحر ٠٠٠ آه ياكعبى الشمال ! الرومانزم يادكتور تابعنى خالص ، اعمل له ايه بس ؟ »

ونظر الدكتور الى كعب محفوظ أفندي فى حركة آلية يفعلها أي طبيب حينما يتأوه الى جانبه مريض ويشكو من جزء فى جسمه ٠٠٠ ورأى الدكتور شيئاً على الأرض ! ولم يصدق عينيه أول الامر ٠٠ فأغمض عينيه وفتحهما ثم أعاد النظر مرة ومرتين وثلاثاً ٠٠٠ ولم يشعر إلا وهو يقفز من فوق كرسيه كالمجنون وصاح فى وجه محفوظ أفندي قائلاً : ايه ده ؟

ونظر اليه محفوظ أفندي فى تعجب وقال فى بلادة : « كعبى »
وقال الدكتور : « ايه الي تحت كعبك ده ؟ »
وقال محفوظ أفندي وهو يأخذ مسبحته من الدرج ويغلق ادراج مكتبه :

« ولا حاجة ٠٠ دول شوية دوسيهات حطيتهم تحت كعبى يحوشوا عنى رطوبة البلاط »
وأخرج الدكتور الدوسيهات من تحت المكتب وفرزها بسرعة ثم تهلل وجهه فجأة وهو يمسك بأحد الدوسيهات وصاح : « آهه ! الدوسيه بتاعى ياراجل يامجنون ! بقى تدوخي ثلاث شهور

والدوسيه بتاعى تحت رجلك ! مستقبلى كله تحت رجلك! أما
معتوه صحيح ا!

وبربش محفوظ افندي من تحت نظارته السميكة وقال فى
برود : « اسكت يادكتور اسكت ده ربنا ٠ »
وقال الدكتور فى دهشة : « ايه ؟ ربنا قالك تحطّ الدوسييات
تحت رجلك ٠٠ »

وحرك محفوظ افندي حبات مسبخته فى خشوع وقال : « لا
يادكتور ، ده ربنا زې ماقلت لك قادر على كل شي » ، مش قلت
لك إن ربنا يمكن يظهره كده فجأة على وش الدوسييات ٠٠٠
ياسلام ياما انت كريم بارب » ٠٠

وماء الحب

كنت أجلس على حافة السرير بجواره ، وهو نائم .. عينا
مغمضتان .. عينا الحبيبتان اللتان كنت أنظر فيهما فتشرق
الدنيا في عيني .. عينا السوداوان يكسو بياضهما دائما
حمرة خفيفة تضفي على نظراته قوة ، وصدق عاطفة .. وملامحه
كلها نائمة غائبة في ملكوت آخر ..

ومددت يدي في رهبة ، وتحسست جبينه .. وسرت في
جسمي قشعريرة باردة .. وانتقلت أصابعي في غير وعي
تتحسس خدي ، وأنفه ، وشفتيه وجفنيه .. ولم أدر كيف
اشتفت لأن أنظر في عينيه .. لأن أرى ولو لمرة واحدة سواد
عينيه الحبيب الذي كنت أنظر فيه فأرى الدنيا بأسرها تشرق
وتبتهج .. وجدت أصابعي تفتح الجفن في تهيب .. وانحسر
الجفن عن عينيه .. ورأيت سوادهما نائما غائما .. ليست
فيه حياة .. وليست فيه دنيا تشرق .. وليس فيه أي شيء ..
سواد ميت غارق في بياض ميت .. شيء كروي أسود ..
جماد ..

لا ، لا .. لا .. وانطلقت مني صرخة لم يسمعها أحد الا
أعماقي الحزينة المفجوعة .. وتركت أصابعي جفنيه فانزلتا على

عينيه كالستائر تخفيهما عني ، وكانما أشفقا عليّ من التحديق
فيهما ...

وانتفضت .. إنّ عقلي يأبى أن يقبل هذا الواقع الشاذ الذي
يشبه الخيال .. لقد كان أبي منذ دقائق يمـسـلاً هذا البيت
نشاطاً ، ومرحاً ، وحياة ! .. لقد كانت عيناه .. عيناه ..
هاتان ! .. تتألقان ببريق يعكس الدنيا بكلّ صورها .. كيف؟
.. كيف تخمد هذه الحياة فجأة ؟ .. كيف تنطفئ هاتان
العينان ، وتصبحان قطعتين كرويتين من جماد ؟ أهذا هو الذي
يسمّيه الناس موتاً ؟ ..

وأحسست بدموع ساخنه تجري على وجهي .. ورأيت وجه
أبي يشحب عمّا كان ، واتخذت ملامحه شكلاً رصيناً رهيباً ..
كانها ملامح تمثال نحت من الجرانيت .. وأمسكت وجهه البارد
في يدي ، وقرّبت شفطيّ من بشرته ، وقبّلته ، وهمست في
أذنه ، « أبي .. أين أنت ؟ هل تسمعني ؟ » إنّي أحبّك ..
وشعرت براحة بعض الشيء .. كان كلماتي من صـدقها ،
وحرارتها ، أذابت جليد الموت ، وبعثت في أذنيه الحياة فسمعني
.. وابتنسمت وعانقته .. وأخذت أحتسّس جيبوبه ، وكان
لا يزال بالمنامة الجديدة التي اشتراها بالأمس .. ووضعت يدي
في جيب الساعة العلوي فوجدت نظارته ، وقلمه ، وعلبـة
سجائره .. وخفق قلبي من الدهشة .. هذه الأشياء ..
أشياءه ! .. تؤكد لي أنّه لم يمت لأنها تعيش في جيبه حيّة
تنتظره ! .. وتأملت نظارته .. وخيّل إليّ أن فيها حياة .. أنّ
فيها عينيه تنظران .. ونظرت الى قلمه الخبر .. ورأيت أصابعه
تلنّج حوله تكتب .. وارتعشت أصابعي ، وأنا أعيد هـنـده
الأشياء الى مكانها في جيبه .. وأزحت الملاء عنه قليلاً لأبحث
عن يديه .. وأمسكت أصابعه بأصابعي .. آه ! .. وأمسكت
يده بكلتا يديّ ، ووضعت وجهي في راحته الكبيرة ، وبكيت ..

ولم أدر إلاّ بيد على كتفى ٠٠ فوقفت ٠٠ وغطيت أبي بالملاء
 حتى وجهه ، وأغلقت عليه الحجرة ٠٠ لا أريد أن يرى أبي أحد
 وهو راقد شاحب ضعيف ٠٠ إنَّ الضعف عورة ٠٠ ولا أريد
 أن يرى أحد عورة أبي ٠٠ أبي الرجل القوي ٠٠ العملاق ٠٠
 الذي علمني كيف أمشي ، وكيف أتكلّم ، وكيف أحبّ ٠٠ كنت
 أجلس الى جواره كلّ ليلة وأستمع الى حديثه العذب ، وهو
 يشرح لي كلّ شيء ٠٠ حتى الحبّ ٠٠ وكان بطبيعته فتاناً يعشق
 الفنّ ٠٠ وفي ليلة سألته : «ماذا تفعل يا أبي لو عرفت أنّي
 أحبّ » ٠٠ وكان يجلس بجوار المدفأة ، فنظر إليّ مدقّقاً ثم قال :
 « لا شيء » المهمّ أن يكون إنساناً يستحقّ هذا الحبّ ٠
 وسألته : « وكيف أعرف أنّه يستحقّ ؟ »
 قال : « مادمت لاتعرفين فهو لا يستحقّ ؟ »

وسمعت في البيت ضجّة ، وصخباً ٠٠ ورأيت أناساً
 كثيرين ، رأيتهم من قبل ، يلبسون السواد ، وروحون ،
 ويجيئون لا أدري لِمَ ؟ ٠٠ وبعد وقت لم أعرف مده رأيت
 الرجال يحملون أبي في صندوق خشبيّ ، ونزلوا به الى الشارع
 ٠٠ وانطلقت العربّة ٠٠ وكنت أجلس في العربّة نفسها بجوار
 الصندوق ٠٠ ولم أكن أبكي ٠٠ لكنّ شيئاً ثقيلاً كان جائماً على
 صدري يقبض على قلبي بيد من حديد ٠٠ ونظرت من نافذة
 العربّة الى الطريق فوجدت الحياة على أشدها ٠٠ الناس يجرون ،
 والعربات تتسابق ، والشوارع كلّها مليئة بالصخب والسعي
 والكفاح ٠٠ وتراخت اليد الحديدية عن قلبي بعض الشيء ،
 وجذبت نفساً عميقاً من هواء الشارع ٠٠ ثم نظرت داخل العربّة
 فوجدت صندوق الموت ، يحمل أبي ٠٠ فعادت اليد الحديدية
 تقبض على قلبي من جديد ٠٠

وسارت عربّة الموت وسط عربات الحياة السريعة ٠٠ وأنا
 أجلس داخلها أجترّ آلامي وأحزاني ٠٠ وأخيراً وصلنا ٠٠ وأنزل

الرجال صندوق أبي ووضعوه على الأرض ، ثم فتحوه وحملت داخل الصندوق لأرى أبي ٠٠ وخفق قلبى خفقة عنيفة كأنه يفرغ بها كل دمه ٠٠ ورأيت أبي ملفوفاً فى أقمشة بيضاء لا تظهر منه شيئاً ٠٠ وحملوه ، وأدخلوه فى حفرة صغيرة ، ثم أهالوا عليه التراب ، وتلفتت حولى فى ذعر ٠٠ كان الدنيا قد خوت وأفقرت ٠٠ أو كان ريحاً عاتية أقبلت واقتلعت أبي ، فأصبحت أنا فى مهبّ الرّيح أنتظر دوري ٠٠ ورأيت الرجال ينفخون عن ملابسهم ، وأيديهم ، التراب فى آلية غريبة ، وكأنهم فرغوا من رجة غذاء عادية ، ولم يواروا الترى إنساباً كان هو بصري وسمعي وحياتي ٠٠

وبقيت وحدي كالمذهولة أحملق فى الحفرة الصغيرة التي ابتلعت أبي ٠٠ أهكذا ١٤ ٠٠ أهكذا ينتهي الإنسان ؟ أهكذا ينتهي أبي ٠٠ الرجل القوي الجبار الذي كنت أنظر إليه كعملاق تناول هامته السماء ١٤ ٠٠ أهكذا ينتهي به المطاف الى أن يرقد في حفرة من التراب ١٤ ٠٠٠

لا ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ صرخت من أعماقي فى ثورة ، واندفعت الى مكان الحفرة ، واخذت أنبش بأصابعى فى عصبية تشسبه الجنون ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ إني لا أقبل هذا ! إنها نهاية قاسية لا أقبلها أبداً ٠٠ سأتحداها ٠٠ سأنبش حتى أفتح هذه الحفرة ، وأخرج أبي منها ! وأحسست بثورة فى أعماقي تندلع وتضطرم ٠٠ ثورة على الحياة ٠٠ وثورة على الموت ٠٠ وثورة على ٠٠

وأفقت على يد تسحبني ، وصوت يقول لي : « هيا بنا نمد » وعدت مع اليد التي سحبتنى أنظر الى الحياة شرراً ٠٠ وأنظر الى الناس شرراً ٠٠ وأسخر فى أعماقي من جريهم ، وحاسهم ، وأقول لهم فى نفسي : « كفى ٠٠ كفى ٠٠ كفاكم جهلاً وجرياً ٠٠ ألا تعلمون مانهايتكم ؟ حفرة فى التراب ٠٠ تراب يهال عليكم ٠٠ تراب فى تراب ٠٠ »

ولم البس السواد ٠٠ كان موت أبي ٠٠ بل شسكلة الموت

نفسها تشغل تفكيري كله حتى أنني كنت أضع ملابسي على
جسمي بلا وعي ، ولا أكاد أعرف لون الرداء الذي أرتديه . .
وجاءني صوته في التليفون حزينا ، معزيا ، مخففا . .
والحقيقة أن هزة الموت أنستني هذا الصوت فترة . . لسكني
رغم ذلك كنت أنتظره . . كنت أتلصص شيئا قويا من الحياة
يعيدني اليها . . شيئا عنيفا يهزني فتسقط عني ، بعض الشيء ،
غشاوة الموت القاتمة . . وما من شيء يستطيع أن يفعل ذلك إلا
الحب . .

وقلت له وأنا أتشبث ببفايا حماس في قلبي : « أريد أن
أراك . » قلتها ببساطة . . وكانت المرة الأولى التي أقول له
فيها أريد أن أراك . . كنت أشعر أحيانا برغبة في النطق بها ،
لكن شيئا ما في أعماقي يمنعني ، فأقول شيئا غيرها ، أو
عكسها ، أو لا أتول شيئا على الإطلاق . . لكنني بعد أن شهدت
الموت رأيت الحياة أبسط وأثقل من أن أكتب في صدري كلمة أريد
أن أنطق بها . .

ودعاني الى بيته . . وترددت قليلا ، ثم وافقت . . ولبست
ملابسي بإهمال زاد بعد موت أبي عما عهدته في نفسي . . ولم
أضع على وجهي أية مساحيق . . ونظرت الى عيني طويلا في
المرآة وقالت لنفسى : « ليس في الحياة شيء يبعث على الذعر حتى
ذهابي الى بيته ! . . »

ووصلت الى بيته دون مشقة كبيرة . . وفتح لي الباب . .
ورأيت لأول مرة بعد موت أبي . . ولا أدري تماما ماذا كان وقع
منظره علي وهو في بيته . . هل ضاعته هيبته الجميلة التي
كنت أهواها فيه ، أم أن موت أبي أضاع هيبه الحياة بكل ما فيها
حتى هو ! . .

وقال بعد أن تكلمنا قليلا : « لم أرك فاترة كالיום . »
وقلت : « لقد جعل الموت الحياة باهتة في عيني . »
فقال : « بالعكس . إن الموت يجعل الحياة في عيني زاهية .

تصوّري لو أننا نعيش الى الأبد . كيف تكون هناك حياة اذا لم يكن هناك موت ؟ . وعلى كلّ فإنّ الموت مصيره الى الموت كما قال طاغور . »

واقترّب منّي قليلاً وقال : « لم أكن أتصوّر أنّ شيئاً ما في العالم يستطيع أن يفرس الحزن في عينيك . » لم يكن التشاؤم أحد صفاتك . »

قلت : « بل إنّ التشاؤم أحد صفاتي . »
ولا أدري لماذا يثير الرجل حزن المرأة . . . لعلّه يرى فيه نوعاً من الضعف أو الأنوثة . . . ورايته يقترب منّي أكثر . . . ويأخذ يدي في يديه ، ويقبّلها . . . وهمس قائلاً : « أحبك » . . . وكأنني لم أسمع كلمته . . . ولم أحسّ قبلته . . . فلم تهتزّ خلية واحدة في جسمي . . . وشعرت بالصقيع يحوطني من داخلي ، وخارجي . . . ولم أجد في نفسي شيئاً من الحرارة حتّى لأسحب يدي من يده . . . كان عقلي قد تجمّد عند فكرة الموت ، ووقف عندها ينظر الى الحياة شزراً ، ويرى كلّ ما فيها تافهاً حتّى الحبّ . . . فلا هو يعارض ، ولا هو يحبّ . . . يستسلم لما يحدث في سلبية مطلقة تشبه الموت .

ورأيته يبتعد عنيّ ثم يقول : « أنت لا تحبينني »
وقلت : « إنّ الموت . . . وقاطعني قائلاً : « لا . . . لا تقولي الموت . . . الموت لا يغيّر شيئاً من الحبّ . . . »
وسكت . . . ورحت أفكّر وأبحث في زوايا نفسي عن حبّي له لكنّي لم أجد شيئاً . . . كأنما تبخّر حتّى آخر قطرة . . .
وقلت في عجب : يا إلهي إنّ الموت أقوى من الحبّ . . .
وسمعتّه يقول : « بل الحبّ أقوى من الموت . . . اذا كان حبّاً حقيقياً ، أما اذا كان وهماً فإنّه يبهت ويتلاشى بجوار لون قويّ صارخ كلون الموت » وودّعني وهو يقول : أرجو أن تقابلي حبك الحقيقي يوماً ما لتصدقيّ كلامي . . .
لم أصدقه في ذلك اليوم . . . لكنّي أحسست بشعور خفيّ ينبئني بأنني سأصدقه يوماً ما . . .



سوسن

كانت تشبّ على أطراف أصابعها لتطلّ برأسها الصغير من فوق جدار الشرفة المبني بالطوب الأحمر ، واستطاعت بعد محاولات كثيرة أن ترى العربة الصغيرة الزرقاء وهي واقفة أمام الباب تحت الشرفة تهتز وتنتفض وتصدر عنها أصوات لا تعرف مصدرها تشبه « الشخصخة » التي تسمعها وهي تتفرّج على المركب الصغيرة تسبح في حوض الماء .. تلك اللعبة الجميلة التي أحضرتها لها أمّها منذ أيام عيد ميلادها الرابع ..

وشبّت على أطراف أصابعها أكثر وأكثر حتى استطاعت أن تدلي رأسها من الشرفة لترى العربة الزرقاء وهي تنطلق بسرعة في الشوارع القصير ثم تنحني إلى اليسار وتختفي .. وأسندت ذقنها الصغير على حائط الشرفة والدموع تنهمر من عينيها الصغيرتين ، ونظراتها الزائغة اليائسة تتعلّق بنهاية الشارع الذي ابتلع العربة لا تدري إلى أين ، وقلبها الطفل يدقّ دقّاً سريعاً متواصلًا وقد اجتاحه شعور بالخوف والفقدان ، وأنّ تلك القوة التي ترعاه وتحميه قد ركبت العربة واختفت في نهاية الشارع . ونادت بصوتها الرفيع الباكي : « ماما .. ماما .. » ، وظلّت نظراتها اليائسة ترقب نهاية الطريق ، وقد صوّرها أمل ضعيف أنّ العربة الزرقاء ستعود منه فجأة .

ولكنّ العربىة لم تعد ٠٠ وبعيت نهاية الشارع خاوية مقفلة كخرابة مهجورة ، ولم تعرف أيّ وقت مضى وهي واقفة متكئة بدقنها ويديها على الحائط حتّى جفت الدموع على خديها وكفّت عن نداء أمها ، وأغمضت عينيها وراحت في النوم .

وفتحت عينيها بعد فترة فوجدت نفسها في السرير الكبير ترتجف من البرد . وقد بللت الفراش وتعرّى جسمها الصغير بعد أن رفست عنها الغطاء وهي نائمة كعادة الأطفال . ونهضت من السرير بسرعة وخرجت الى الشرفة ونظرت الى نهاية الشارع علّها تجد العربىة الصغيرة مقبلة ٠٠ ولما لم تجد شيئاً دخلت يائسة الى الحجرة وفد بدأت تحسّ بالجوع ٠٠ ودارت فى حجرات البيت الواسعة الحاوية لنبحث عن دادة فاطمة ٠٠ ووجدتها ٠٠ كمادتها متكومة حول نفسها على الأريكة في حجرة النوم المهجورة في أقصى البيت ، والتي ليس بها إلا سرير قديم تنام عليه دادة فاطمة وبعض الأثاث العتيق الذى استغنت عنه الأسرة .

- جوعتي يا حبيبتي ؟ ٠٠ ده انت من اُصبح ماكلتيش . .
ياضنايا ! ٠٠ تاكلي ايه ؟ اجيب لك شوية رزّ وفاصوليا ولحمة؟

وفكّنت قديميها ويديها وفردت جسمها النحيل اليابس ، وقامت فى تكاسل وهي تقول لنفسها : « أنا عارله قلب أمك ده ايه ! حجر ! ٠٠ ياقلبها ياختي تهون عليها بنتها كده ا » . ومسحت بكفّها دمة سالت على خدّها فقد تذكّرت ابنتها الطفلة أيضا . وقد تركتها فى البلدة مع أبيها المشلول وجاءت هي الى القاهرة لتشتغل وتعملهما . وقالت لنفسها : طيّب أنا سايبها عشان أاكلها وشرّتها ٠٠ لكن دي سايبه بنتها ليه ؟ عشان الراجل ! ٠٠ أخص عليها ٠٠ راجل ايه وهمّ ايه ! هو فيه بعد الضنى حاجة ! ٠٠ »

وجلست سوسن على المائدة ترقب دادة فاطمة وهي تروح وتجيء وتضع الأطباق أمامها ٠٠ وتأملت أصابعها الغليظة الجافة

وهي تمسك بالأطباق فتذكرت أمها بأصابعها الرفيعة الرقيقة
وهي تعدّ لها الطعام في بيتها . .
• هي ماما بتروح فين يادادة ؟
- بتروح المدرسة يا حبيبتي عشان تدرس للأطفال وتعلّمهم
الحساب .
• أنا عاوزة اروح معاها المدرسة .
- لما تكبري يا حبيبتي شويه كمان تروحي المدرسة .
• وهي ماما بتبات فين ؟ . . في المدرسة ؟ . .
- أيوه في المدرسة .

وتنهّدت دادة فاطمة ، ومسحت عينيها بكمّها ، ثم جرّت هيكلمها
النحيل وذهبت الى حجرتها . . وجلست سوسن تأكل وحدها
ثم تذكرت المركب فقفزت من فوق كرسيّها وذهبت الى صوانها
الصغير وأخرجت منه المركب وملأت الحوض بالماء ، وجلست
تتفرّج على المركب وهي تسيح في الماء وتحدث شخصخة غريبة
تشبه الصوت التي تحدّثه عربة أمها الصغيرة حينما تهتزّ وتتحرك
وتأخذ أمها وتجري في الشارع ثم تختفي . .
وضاع رونق المركب في عينيها ، وفقدت اللعبة لذّتها فامسكتها
بيدها وأغرقتها في الماء ، ثم جرت الى الشرفة لتنظر الى الشارع
علّها تجد عربة أمها قادمة اليها . . لكنّها لم تجد شيئاً فشبت
على أصابعها لترى الشارع أكثر لعلّ العربة مختبئة هناك تحت
الشرفة . . وتدلّت رأسها في الهواء دون أن ترى شيئاً . .
فعدادت الى دادة فاطمة منكسة الرأس تبكي بلا دموع وقالت لها:
- عاوزة اروح لاما . . وديني يا دادة لاما »

- يا قلب أمك يا حبيبتي
ومدّت دادة فاطمة يديها المعروقتين وأخذت الطفلة بين ذراعيها
وربتت عليها .

- يا ضنايا أوديكي لاما . . حاضر أوديكي لاما .
وقامت من جلستها ولبست رداءها الاسود الذي تلبسه عند

اشرج ، وقالت لنفسها في ثورة : « حودّيتها لأمها .. بلا وجع قلب ! تشوفلها طريقة في بنتها .. هو أنا حاقعد لهم ! .. هو أنا ماعنديش قلب ! .. آمال لو ما كنتش مدرّسة قد الدنيا ولها ماهية تغنيها عن أي راجل كانت عملت ايه ؟ »

وكادت سوسن تجنّ من الفرح وهي تمنسك بيد دادة فاطمة وتمشي في الشارع ، وزاحت تتلقّت هنا وهناك وتنظر في كل عربة خلفها علّها تجد أمّها .. وأخيراً ذأت دادة فاطمة تتوقّف أمام بيت وتدقّ الجرس .. وخفق قلبها الصغير حين فتّح الباب ورأت أمامها رجلاً طويلاً ، هو نفس الرجل الذي تراه يجلس بجوار أمّها في العربة .. وتكرهه .. وتخاف منه .. وتحسّ أنّه بانفه الطويل المقوّس كالغراب الكبير أو الحداة التي خطفت ذات يوم كتكوتاً من فوق السطح .

ووقف الرجل الطويل في فتحة الباب يسدّها والطفلة تنظر اليه وقد تراجعت الى الوراء قليلاً .. ودادة فاطمة أيضاً ربّما شعرت بما شعرت به الطفلة فوقفت كالتمثال لا هي تدخل ولا هي تعود من حيث أتت .. ولو خيّرت بين الاثنين لعادت من حيث أتت ، فقد بدا لها الرجل غريباً عنها وعن الطفلة ، والبيت ليس لها فيه مكان ..

ونظرت الى سوسن كأنها تستشيرها الرأي ، لكنّ سوسن لم تتزحزح عن رأيها ، ووقفت تنظر من الشقّ الصغير من الباب الذي بقي دون أن يسدّه جسد العملاق الواقف أمامها .. ووقفت تنظر من خلال ذلك الفلق علّها ترى أمّها .. أو لعلّ أمّها تراها فتأخذها إليها .. لكن أمّها لم تظهر .. وسمعت صوت الرجل الأجنّ يقول : « روحية لسه ماجئتش من المدرسة »

وقالت دادة فاطمة في تخاذل : « طيّب نستنّاها »
ودخلت سوسن ووراءها دادة فاطمة ، وفتّح لهما الرجل حجرة الضيوف .

وجلست الطفلة تتلقّت حولها في الحجرة وتنظر الى الصور

المعلقة بالخائط .. وراى أمها فى إحدى الصور فقامت مسرعة الى الصورة وقالت :
- دادة .. ماما أهه ! ..

وضحكت سوسن فى سعادة وكأنها ترى أمها حقيقة ، لكنها مالبثت أن عادت منكسرة بجوار دادة فاطمة وقد تبينت أنها ليست صورة أمها وحدها ، وإنما يقف الى جوارها ذلك الرجل الطويل الذي لا تعرف ستر ظهوره فجأة فى حياتهما ..
وأخيراً سمعت صوت أمها فى البيت فقفزت من الفرح وجرت خارج الحجرة وهى تصيح : « ماما جت يادادة ! »
وأحست سوسن بالدفع الذي كانت تحسّه كلما أخذتها أمها بين ذراعيها ، ووضعت رأسها على صدر أمها وراحت ترتّب يديها الصغيرتين على ظهرها ثم قبلت وجهها وخديها وشعرها ، وأدخلت أنفها الصغير فى شعر أمها وأخذت تشمه وتقبله .
ومضى الوقت سريعاً جداً .. وأفاق سوسن على صوت دادة فاطمة تقول : « ياللا نروح ياسوسن » وسمعت أمها تقول لفاطمة : « خي بالك منها كويس فى السكة يافاطمة ، وابع العربيات »

وحملت سوسن فى وجه أمها لتفهم السبب الذي من أجله توافق أمها على كلام فاطمة ، ولماذا لا تبقيها معها فى البيت كما كانا دائماً .. وقالت الطفلة والدموع فى عينيها : « لا مش عاوزة أروح البيت الى هناك .. أنا عاوزة ماما »
ولجأت الى الصراخ والبكاء ، ونشبت بلباس أمها ، ولكنّها فى النهاية لم تجد بداً من الاستسلام ، وأخذت الشيكولاتة الكبيرة فى يدها التي أعطاها لها أمها لتكفّ عن البكاء ، وخرجت الى الطريق مع دادة فاطمة وهى تشعر بالحزن العميق حتى انها سارت الى جوار دادة فاطمة صامتة واجمة ..

ووصل البيت .. وأسرعت سوسن الى سريرها ووضعت الشيكولاته تحت الوسادة . ثم أخذت تدور فى حجرات البيت

الواسعة الباردة لتجد شيئا يسليها ، لكنها لم تجد شيئا . .
الكل لا يحسن بها . والكل مشغول عنها . . وأخيرا ذهبت الى
سريرها وألقت على قطعة الشيكولاتة نظرة يائسة حزينة ووضعت
رأسها على الوسادة ونامت .

وفي الصباح ما أن فتحت عينيها حتى تذكرت أمها ، فوضعت
يدها تحت الوسادة وتحسست قطعة الشيكولاتة ، وأمسكتها في
يدها وهي تفكر في سر ذلك الرجل الغريب الذي تعيش معه
أمها في ذلك البيت البعيد .

وفجأة سمعت صوت عربة فقفزت من السرير وجرت الى
الشرفة ، وشبت على أطراف أصابعها ودلت رأسها في الهواء
لتنظر الى الشارع . . ولم نر عربة أمها الزرقاء وإنما عربة أخرى
وقفت أمام باب الجيران . . وزاغت نظراتها الحزينة في سافل
الشارع فتش عن عربة أمها ، وتعلقت عينها بنهاية انشارع
التي تبتلع العربة في كل مرة ، وانهمرت الدموع من عينيها
في ثنية الشارع . . وأخذت تنادي بصوت عالٍ بالك : ماما ! . .
وهي تنادي غلى أمها : ماما . . ماما ! . . فقد خيل إليها أنها مختبئة
لعلها تسمعها وتخرج من مخبئها . . ولكن صوتها الرفيع كان
برن في أنحاء الشارع ثم يعود إليها كما هو . . وأرهفت أذنيها
لتنصت الى الصدى وقد خيل إليها أن أمها ترد عليها . . ولكنها
مالبتت أن عرفت أن ماتسمعه ليس إلا صوتها نفسه يقول :
ماما . .

وأسندت سوسن ذقنها الصغير على حافة الشرفة وراحت
تراقب الطريق وهي شاردة يائسة . .
وأفاقت بعد قليل على عربة تدخل فجأة من ثنية الطريق . .
وخفق قلبها . . عربة زرقاء صغيرة ! . . عربة أمها نفسها ! . .
وصرخت من الفرح وقفزت الى أطراف قدميها لتطل برأسها من
الشرفة . .

.

لم تكن إلا لحظة من الزمن خاطفة .. برقت كنصل السيف ثم
سقطت في الماضي كأي لحظة من لحظات العمر .. لكنها كانت
لحظة تساوى الزمن ، ضاعت فيها حياة بأكملها ..

وملأ البيت الصراخ والبكاء .. ومن عيون غرقت في بحر
من الدموع انطلقت نظرات ساخطة هي نظرات دادة فاطمة
تصوبها الى الأم .. التي جلست كالتمثال لا تبدي حراكاً وكأنما
قبضت روحها وهي جالسة ، وكان الى جوارها الرجل الطويل
نفسه ، جالسا ينظر إليها ويحاول من حين الى حين أن يفتصب
كلمة أو كلمتين يخفف بهما عنها ..

وكان البيت الواسع بعد أن انقطع عنه الصراخ والبكاء
يفرق في لجة من الصمت الكثيب والناس داخله إما جالسون في
صمت حزين ، وإما رانحون غادون في الحجرات الكثيرة وكأنما
يبحثون عن شيء وهم في الواقع لا يبحثون عن شيء ..

وفجأة مزق السكون صوت حاد كطلقة المدفع .. وانفتحا
جميعاً في فزع نحو الأم وقد عقد الذهول ألسنتهم .. ورأوها
.. الأم نفسها .. منتصبة على قدميها كالنمرة ، ويدها اليمنى
ترتفع عالياً في الهواء ثم تسقط في قوة على وجه الرجل الجالس
بجوارها :

- أخرج برة ! .. أخرج ! .. مش عاوزة أشوفك !
كان صوتها مجنوناً مبجوحاً ، ويدها طائشتان ترتفعان
وتهويان على وجه الرجل الذي تراجع الى الوراء في ذهول أليم
لسانه ..

والتفت حولها أهل البيت وأبعدوها عنه .. وذهبت دادة
فاطمة الى الرجل الواقف في ذهول كالتمثال وربتت على كتفه
وقالت :

- أخرج يا حبيبي أخرج ..

ولم يتزحزح الرجل من مكانه وكأنه ثبت في الأرض
بمسامير .. ونظرت إليه دادة فاطمة في دهشة وغيظ وقالت
له في شدة : ماتحرج بقه ! .. هو أنت إيه ! »

ونظروا إليه وهو يجزّ نفسه كالمشلول ويخرج من الباب ،
ورأوا الأمّ تجري وتغلق خلفه الباب ثم تستدير اليهم وعلى
وجهها ابتسامة غريبة تشبه ابتسامة الموتى الشاحبة قبل أن
تذهب روحهم إلى الأبد .. ولكن سرعان ما غابت الابتسامة
ورأوها تنظر كالمجنونة اليهم وتجري الى الشرفة .. وجروا
وراءها مذعورين وجذبوها من ملابسها وأغلقوا عليها إحدى
الحجرات ..

وجلسوا في صالة البيت واجمين .. ومن خلال نسيجها
المكتوم داخل الحجرة المغلقة سمعوا صوتها وكأنه آتٍ من
بعيد : « سامحيني يا سوسن يا حبيبتي .. سامحيني ! .. »

فراغ

وضعت قدمي على سلّم صغير لأصعد فوق المنضدة الحديدية
المغطاة بملاءة حمراء من المشمّع ٠٠ وما أن استويت عليها حتى
أحسست بيد قوية خشنة تمسك ذراعي بغير رفق وتربطها
برباط من الكاوتشوك ٠٠ ثم تشدّ الرباط بقوة ، وشعرت
بألم حادّ في ذراعي انتقل سريعاً الى معدتي وأحسست بطعم
شيء غريب في جوفى ٠٠ وفجأة ٠٠ رأيت السماء تكتسي بلون
أحمر قاني ، ثم أخذ اللون الأحمر يبهت شيئاً فشيئاً حتى
أصبح غلالة حمراء رقيقة تهتزّ مع النسيم الرقيق على نافذة
حجرتي ، ووجدتني أجلس وحدي في حجرتي ٠٠ والباب
مغلق عليّ ، أجلس على طرف الكرسي وأضغط أصابع يدي في
عصبية وأنفعال ، وأهزّ رأسي في ضيق وحيرة .
لقد مللت ٠٠ مللت كلّ شيء ! لم يعد هناك شيء يثيرني ،
يحزّني ، يهزّني ! عرفت كلّ شيء ٠٠ ومارست كلّ شيء ٠٠
وماذا كانت النتيجة ؟ عدماً ٠٠ لا شيء ! عرفت الكفاح المرير
من أجل دريهمات قليلة . وعرفت الرّخاء والكسل والنعيم
بلا تعب ، عرفت دموع الألم والحزن ، وجربت دموع الفرح
والنشوة ، عرفت الحبّ والكراهة ٠٠ وجربت الأصدقاء والأعداء

عرفت الرجال والنساء .. ولعبت مع الأطفال لعبة الثعلب
فات فات ..

مرت بي سنين كنت اخرج فيها كل صباح باكراً قبل ان
تبرغ الشمس لألحق بأول قطار يقلني الى بني سويف . ولم
يكن القطار يحمل إلا العمال والمزارعين والموظفين الصغار من
الدرجة التاسعة فما تحت ، وكانت البراغيث تترك كل هؤلاء
وتقبل نحوي متبخرة ، وتتسلق ساقبي .. ثم تبدأ عملها
اليومي كأنها موظف حكومي نشط .. وأبدأ أنا في القفز من
مقعد الى مقعد وقد منعني الحياء والخوف من ان أدافع عن نفسي
بالطريقة الطبيعية ضد هذه الحشرات اللعينة .
وكان عملي مرهقاً ، او لعله كان الذهاب الى عملي هو
المرهق .

وانتهت سنوات الفحط هذه كما ينتهي أي شيء .. ووجدتني
فجأة أقوم من فراشي الوثير وأنا اثئاب في استرخاء وكسل
وانظر الى عقارب الساعة بنصف عين .. وحينما أجد ان
الساعة لم تبلغ الا التاسعة أعود فأغمض عيني واسبح في
أحلام لذيذة .. فإن عملي ليست له مواعيد .. أذهب العاشرة
او الحادية عشرة .. او لا أذهب على الإطلاق .. تبعاً لمزاج
سيادتي الشخصي .. فأنا مديرة كبيرة وليس لأحد سلطان
علي !

لكن سنوات الرخاء لا تليث أن تدبر كما يدبر أي شيء .
وأجد نفسي محشورة مع ركاب الدرجة الثانية في الأتوبيس
بعد أن كنت أركب عربة خاصة بي وأعطي لسائقها الأوامر
بان يذهب بي حيثما أشاء .

وكانت لي صديقة حميمة عملها الرئيسي في الحياة هو ان
تسجل ما يطرأ على حياتي من تغير ، الى جانب اعمالها الأخرى
كربة بيت لها زوج وأولاد .. وكانت تقول لي دائماً :

يا شيخه حرام عليكى ٠٠ ده أنا تعبت مش لاحقة أجري
وراكى فىن والا فىن ٠٠ مش ناوية تستقري بقى ؟
كانت كلمتها هذه تثير في نفسي كثيراً من الأفكار والأسئلة
والخيرة: استقرى ٠٠٠ كيف ٠٠٠ ولماذا ٠٠٠ ومتى ٠٠٠
ثم كيف استقر وأنا أقف على أرض كروية تدور وتلف
بلا توقف ٠٠٠ كيف لا أتحرك وقدماي مشدودتان الى شيء
يتحرك ٠٠٠
لكن صديقتى كانت مخلصه ٠٠ وكانت تحبني فلم أشأ ان
اغضبها فقلت لها : حاضر يا عزيزتى ٠٠ ساستقرى ٠٠
ولنبدا ٠

وكانت البداية ان عرفتني بعريس ٠٠ فإن الاسنفار في
راي صديقتى هو الزواج ولا شيء غيره ، ولم أكن أعرف ذلك
الا بعد ان وجدت نفسي اجلس فى حجرة الصالون فى بيتها
ومعى رجل لم أقابله من قبل ، ولم يعجبني الرجل ٠٠ لكنني
رحمت مجاملة لصديقتى افتش فى ملامحه أو فى جيوبه عن
شيء يثير الاهتمام ٠٠ لكنه كان خالي الوفاض من كل شيء ٠٠
حتى عيناه كانتا خاليتين من التعبير !
لكنني رغم كل ذلك تزوجته ٠٠ مجاملة لصديقتى ٠٠ لم
أشأ ان أخيب ظنّها في نفسها ، وفى مقدرتها على إقناعي
بالاستقرار .

تزوجته ٠٠ لأننى أشعر نحو صديقتى بعاطفة ما ٠٠
لا أستطيع ان أصفها ٠٠ ولكنها عاطفة قوية تجعلني أفكر فى
بعض الاحيان أن أسعدها ٠٠ وأحسست أن زوجي من هذا
الرجل سيكون سبباً فى سعادتها .
لكنى لم أستطع أن أستمّر فى إسعاد صديقتى كثيراً ٠٠٠
وهذا عيبي ٠٠ فانا لا أتعلم بشيء من الصبر ٠٠ وسرعان
ما يصيبني الملل ٠٠

آه الملل ٠٠! هذا العملاق الفاجر فاه دائماً يبتلع في جوفه
كل شيء ٠٠ ثم يترك من حولي فراغاً كثيباً قاتلاً كأنه الموت ،
فراغ عنيد ٠٠ يتبعني أينما ذهبت ٠٠ ويطاردني بالليل
وبالنهار ٠٠ لا يخشى رهبة الحكومة وموظفيها الموقرين ٠٠
فيستلّ اليّ من تحت باب المكتب وأجده متربصاً بي وأنا
أقلب الاوراق وأنجز الأعمال ٠

ولا تخدعه الهوايات التي جمعتها في نفسي ، فيلاحقني وأنا
الهت أثناء اللعب والمباريات ٠٠ ويجلس بجانبى يدندن وأنا
اعزف على آلتى فتعلو دندنته الغليظة النشاز على صوت
انغامي ٠

استغيت منه ، وأصرخ في أذنه ، والطمه على وجهه ، واكسر
القلم في عينه ، وأقلب عليه دواة الحبر ٠٠ لكنه ثقيل عنيد
لا يفارقني ٠٠ فالقي كل ما في يدي وأترك له المكان وأخرج
الى الحلاء لأشتم الهواء ٠٠ فاذا به يتسلّل مع الهواء الى أنفى ا ٠٠
وأخط رأسي في جذع شجرة سميكة خشنة حتى تسيل
منه الدماء ٠٠ لكنه لا يدعني ٠٠ فليس هو ممن يرهبون
منظر الدماء ٠

ورأيت الناس يسرون اثنين اثنين ٠٠ رجلاً وامراً ٠٠
والثقت عيناى بعيني رجل يختلف عن الآخرين ٠٠ قلت له
« أهو انت » ٠٠ قال « نعم » ٠٠

وسرنا جنباً الى جنب ٠٠ وعرجنا على طريق النيل ٠٠
وهبت نسمة باردة نديّة من صفحة الماء فشعرت بالبرد ،
وأحسست بيده في يدي فنظرت اليه ، كان قريباً متي ويقع
على وجهه ضوء مصباح قريب ٠٠ وتأمّلت وجهه ٠٠ كان غريباً
٠٠ لم يكن هو الوجه الذى رأيته من قبل ٠٠ كانت عيناه
صغيرتين حمراوين ٠٠ وأنفه كبير الحجم ٠٠ وشاربه الطويل
يتدلى على حافة فمه ٠

ووقفت .. وسحبتي يدي من يده .. وقلت له : ، لارجع .
لقد أخطأت ، أنك لست هو . »

وعسدت الى بيتي ، وأغلقت باب حجرتي ، وجلست على
طرف الكرسي أضغط أصابع يدي في حيرة وقلق .. وتلفت
حولي .. كأنما افتقد شيئاً .. آه .. تذكرت .. الفراغ ..
أين هو ؟ ..

ولم يمهلني .. رأيته يدخل منحنيًا من فرجة الباب ..
ويقف منتصبًا أمامي .. أهلاً .. فراغ ! ..
وجلس الى جواربي بوجهه الجديري القبيح .. وقال لي
مشفقاً : « إنك يا عزيزتي في حاجة الى شيء جديد » ،
فقلت في مرارة : « لم يعد هناك شيء جديد » ،
قال : « لماذا لا تسافرين ؟ »

فلت : لقد سافرت الى كل شبر من الأرض يخطر على
بالك .

قال ساخرًا : « الأرض ! .. وهل تسمين هذا سفرًا ؟ انت
في حاجة الى تغيير جو الأرض .. لماذا لا تسافرين الى الزهرة !
هيا .. هيا .. ان آخر سفينة تطير الى هناك في السابعة
مساء . أمامك أقل من ساعة لتعدي حقبتك ..
وقلت : « والله فكرة ! عجيبة .. لماذا لم أفكر في ذلك من
قبل » ؟

ووجدتني بعد فليسيل أقف في مطار سفن الفضاء .. في
يدي حقيتي .. وعلى وجهي ابتسامة بلهاء تنم عن أي شيء ما
هذا الذكاء أو الفهم .. ورأيت حشدا من النساء والرجال
يجرون نحو السفينة فجريت معهم .. وارتقيت بضع درجات
صغيرة ثم وجدتني في جوف السفينة ، ورأيت مضيئة حسناء
تبتسم لي وتقودني الى أريكة صغيرة ، ووضعت حقيتي في
مكان خاص .. وجلست على الأريكة ، فاذا بي أغطس فيها

كانني وقعت في إناء من العجيب ، وتلفتّ حولي لأبحث عن منقذ
يفتشلني فرأيت عدداً كثيراً من الأرائك تفتطس فيها أجسام
كثيرة لا تبدي ذعراً وانما تستلقي في هدوء ٠٠ فغطست
بدوري في صمت ٠٠ وسمعتنا صفارة رفيعة ٠٠ أعقبها صوت
نسائي رقيق يقول : « السفينة ارتفعت ٠ سنتوقف في
الزهرة عشر دقائق لنموت ٠٠

ونظرت في العدسة التي الى يساري فرأيت الأرض تبعد
عنا بسرعة هائلة ٠٠ فشعرت براحة تسري في أوصالي ٠٠
وتمدّدت في أريكتي وأغمضت عيني لأسرح ما أشاء في تلك
الرحلة الى الزهرة، وقلت لنفسي : يا لها من مغامرة ٠٠ ترى
ما شكل الرجل هناك ٠٠؟ وهل عندهم حبّ ٠٠؟ وتركت
لخيالي العنان يرسم ما يشاء من المغامرات البريئة ٠٠

وبعد ساعات لم أعرف عددها سمعت صوت المضيفة الحسناء
تقول : « تذاكر الزهرة ٠٠ » وأخذت حقيبتي في يدي ونزلت
من السفينة ٠ وعلى وجهي ابتسامة عريضة جداً استعنت عليها
بكلّ مواهيبي ، وتلفتّ حولي لأجد رجلاً أو مخلوقاً في المطار فلم
أجد ٠٠ وسرت لأهرب في الأرض الرملية علني أجد عربة
أو تاكسيا يقلّني الى البلدة ٠٠ وقبل أن أصل الى موقف
العربات ٠٠ رأيت رجلاً يقف في وسط المطار وفي يده حقيبة
٠٠ وانبسخت أسارير وجهي لا أدري كيف واتجهت نحوه
٠٠ ولما اقتربت منه وجدته رجلاً عادياً يشبه رجال الأرض وله
شارب صغير ٠٠ ولم أجد بداً من أن أسأله : « هل أنت من
الزهرة » فقال الرجل بصوت غليظ : « نعم » فقلت : « وإلى
أين أنت مسافر ؟ » فقال : « الى الأرض » قلت : « الأرض
لماذا ؟ » فقال وهو شارد : « الفراغ » ٠

وحملت في وجهه لحظة وقلت : « الفراغ ٠٠؟ إنه في
الأرض ٠ لقد ودّعته منذ ساعات » فقال غاضباً : « هراء ٠ إنه

في الزهرة - لقد ودّعته أنا منذ دقائق ا « . . فقلت له في غضب : « بل إنه في الأرض » . فقال في ثورة : « بل إنه في الزهرة ا » . قلت : « في الأرض » ا قال : « في الزهرة ا » . قلت : « في الأرض ا » قال : « في الزهرة ا » . وصفني على وجهي ا ففتحت عيني . . ورأيت الطبيب واقفاً بجواري يخطب بيديه على وجهي في صفعات ليئة . . وسمعتة يناديني باسمي سهر . . سهر . . مبروك يا ستي . . خلاص العملية . .

وتقلّبت في الفراش مذهولة أحسن أن رأسي قد أصبح لي ثقل الكرة الأرضية . . وقلت في غضب : « في الأرض ا في الأرض . . »

رسالتي الدكتور ضاحكا : « ايه هو الى في الأرض يا سهر . . » . فقلت وأنا أثصاب من أثر المخدر :
« الفر . . الفر . . الفر . . الفر . . الفر . . »

الشيء

كانت انثى ، فى انوثتها دفة ، وفى جاذبيتها لهب ٠٠
وكانت حرة لا يمتلكها رجل لأنها تمتلك رجالاً كثيرين يحبونها
ولا تحبهم ٠٠ وكلما أحبوا لم تحبهم ٠٠ وكلما لم تحبهم
أحبوا ٠

وكانت ذكية لم تبع نفسها لرجل ، فكل امرأة مثلها يمتلكها
زوج كالأسد يراقبها ويحاسبها ، وقد يصفعها أو يركلها ثم
يخرج يشكو منها لامرأة أخرى ويبكي كالطفل بين يديها ٠٠
لم تقبل أن تعيش مع الأسد وهو يزار ، وانظرت فى بيتها
كالمملكة ليأتيها الطفل الشاكي الباكي ٠٠ وكم من أطفال اشتكوا
وبكوا بين يديها ٠٠ وكانت امرأة لكنها لم تكن نمره ٠٠ كان
لها قلب ينبض أحياناً وإن تراكم عليه غبار الطرق المتربة
التي تسير فيها ٠٠ فلم يكن لديها وقت لتنفض الغبار عن قلبها
لأنها مشغولة كرجال الأعمال وملاك الاطباء ٠٠ تمتلك أطيافاً
من الرجال لا حد لها ٠٠ من كل صنف ، وكل طبقة ، وتعرف
كيف تجعلهم يضعون رؤوسهم على حجرها ويتنفسون بهدوء
واستسلام ثم يلفون الدموع ويشتكون ٠

ولم تكن تسمع شكواهم لأنها كانت تسرح دائما ، تنظر
 بطرف عيناها الى الحياة باستاذية وكبرياء، فالحياة تحت قدميها
 .. كل شيء فيها موجود عندها في العربة .. في السلاجة .
 في الدولاب .. على الرف .. أو في جيب رجل .. كل شيء سهل
 الحصول عليه من أي مكان قريب أو بعيد . ليست في الحياة
 مسافات ولا مستحيلات عندها .. الحياة التي تذلّ الملايين من
 النساء مثلها وتربطهنّ في البيوت كالماشية يفسلن جوارب
 أزواجهنّ ، وتنصهر بشرتهنّ الرقيقة أمام نار الطهو والشيء ..
 وبعد أن يلتهم كلّ زوج الطعام الشهويّ ، ويبدل الجوارب المتسخ
 ويصدر الشخطة أو التكشيرة يفترّ من البيت والزوجة الى الحياة
 .. اليها ..

وتتلقاهم باسم ناعمة معطرة . فهي لا عمل لها إلا أن
 تزيّن وتعتطر وتلك ساقها ويديها .
 وكم تمتّ هذه الحياة الحاملة بلا واجبات من زمن طويل
 حينما كانت في السابعة عشرة من عمرها فتاة صغيرة تتعلّم
 الآلة الكاتبة لتحصل على عمل .. وفي أوّل شهر قبضت فيه
 ماهيتها خفي قلبها ولعلّت عينها من الفرح وهي تخفي الستة
 جنيهات بعد أن عدّتها عشر مرات في بطانة حقيبتها ، وضغطت
 عليها تحت أبطها حتى لا يخطفها أحد الصبيان الذين يقفزون
 على سلّم الترام ، وأوّل ما وصلت بيتها أخرجت الجنيهات الستة
 لأُمها وهي تنظر في عينيها لتشبع نفسها من السعادة الضخمة
 التي تحسّها وتراها ، واغرورقت عينا أمها بالدموع وهي
 تحتضنها وتقبلها قائلة . « ربّنا يخليك يا فريدة يا بني ..
 خلاص ربنا فرجها علينا وعوضنا بك عن المرحوم »
 ومن يومها وفريدة تحسّ أنها تفتح بيت المرحوم أبيها ،
 وانها تعول أسرتها ، وأصبحت تثق في نفسها كما يثق في
 نفسه أيّ رجل يفتح بيتاً ويعول أهله .. ورفعت رأسها وهي

تمشي لنشعر العالم أي مسئولية نرعاها وأي أهمية لوجودها
 .. وحينما كان يعاكسها في الطريق شاب رقيق كانت تنظر
 اليه شيزرا كأنها تتعجب من جراته على معاكستها هي التي
 تقبض ماهية وتعول أسرة .. أو حينما توشك على دهسها عربية
 تتعجب كيف لا يحترم الناس حياتها ويقدرّون وجودها لأنه ان
 ضاع يضيع معه وجود أسرة بأكملها ..

ولما بلغت فريدة العشرين من عمرها ، واشتدّ بروز نهديها
 وضمور خصرها .. تحت الفستان البسيط الذي تلبسه في

المكتب كلّ صباح ، لاحظت أن سكرتير « سعادة البك » يطيل
 إليها النظر وهي تكتب على الآلة الكاتبة ، واختفت لهجته
 الحسنة الأمرة التي عودها عليها بصفته رئيسها المباشر ..
 وكأي أنثى فهمت بغريزتها السبب ودبّ الحماس الدافئ في
 داخلها ، وجعلها تتمشى بخطوات أخفّ وأرشق .. وفي بيتها بعد
 أن تاكل ما أعدته أمّا تذهب الى سريرها ، وتمتدّد ساقها ،
 لتقضي ساعة أو أكثر في تخمين لذيذ عما سيكون سبباً لهذه
 الرقة الجديدة ..

ولم تعش أياما كثيرة في لذة هذا التخمين إذ أصبح السبب
 مؤكدا واعترف لها السكرتير بحبه في ليلة مقمرة بجانب
 الليل ، وتذوّقت طعما جديدا لم تعرفه من قبل .. طعم
 الرجل .. أنفاسه وعرقه .. ولم يعجبها هذا الطعم أو لم يكن
 في مستوى خيالها الحصب، واحسنت أن الواقع صغير بالنسبة
 للخيال، لكنّها قنعت به وظنّت انها لن تجد واقعا خيرا منه
 .. فهو رجل مثل كلّ الرجال وهو رئيسها ..

وبعد أيام قليلة اعتادت هذا الواقع وألفته ، وأصبح أجمل
 مما كان .. ولم تتصوّر أن هناك سعادة أكثر من أن تتزوّج
 هذا السكرتير لولا أنها اكتشفت سعادة أكبر .. إذ تفتّب
 السكرتير يوما عن العمل ، واضطرت الى القيام بأعماله ،

ودخلت حجرة « سعادة البك » لأول مرة ، وتعثرت قدماها في
السجاد الفاخر ، ولم تجرؤ على التدقيق في ملامح « البك » ،
لكنّها رأت ابتسامه على شفتيه .. ابتسامه رقيقة .. وبعد
هذا اليوم أصبح « البك » يطلبها الى حجرته ، ويكلفها بأعمال
ليست من اختصاصها .. وبعد انتهاء العمل في أحد الأيام
لمحت « سعادة البك » وهو يركب عربته ، ولم تتوقع أن
يناديه بالاسم ، ويدعوها للركوب معه قائلا :

- بيتك فين يا فريدة ؟

وتلعثمت وهي تقول :

- في العباسية ..

وابتسم وهو يفتح لها باب العربة قائلا :

- تعالى .. تبقي في سكّتي وأنا طالع مصر الجديدة ..

وركبت الى جواره ، وهي تلتصق بباب العربة لتحصل على
أكبر مسافة بينه وبينها ، وأطرقت وهي تفكر أصابعها ..
إنّها أول مرة في حياتها تركب عربة ملاكى .. وبجوار من ؟
« سعادة البك » .. رئيس رئيسها ، وصاحب الجاه ، والمال ،
والمكتب ، وكل شيء .. ولم يساورها شك في أن تصرّفات
اليك معها ماهي إلاّ اشفاق عليها ، وخصوصا وهي كما وصفت
نفسها في طلب العمل يتيمة الأب وتعمل أسرتها ..

ولم يدم يقينها بهذا الإشفاق طويلا ، إذ بعد ثلاثة أيام
بالعدد ، كانت تركب بجوار البك ، ولم تكن تلتصق بالباب
خجلا وانما كانت تلتصق بالبك نفسه الذي حوطها بذراعه
وبين كلّ عمودين نور يميل عليها ليأخذ قبلة .. وكانت فريدة
تنظر الى ما حولها كأنها عمياء أو نائمة تحلم .. وأوقف البك
العربة فنزلت ، وانحنى أمام المصعد لتدخل أمامه فدخلت ..
وصعد المصعد الى أعلى كأنه يصعد الى السماء ، ثم وقف وخرجت
أمامه .. وأخرج البك من جيبه مفتاح شقته ، وفتح الباب

وانحنى لها لتدخل امامه فدخلت ٠٠

لم تدر فريدة كيف فرطت في نفسها مع هذا البك رغم أن
السكرتير لم يستطع أن يأخذ منها شيئاً ٠٠ لكنها كانت لا
تستطيع أن تخالف البك أو خيل اليها أنه شرف عظيم لها أن
تنام في أحضانه على فراشه الوثير ٠٠ ولم تعرف قيمة مامنحته
له من نفسها الا بعد شهر كامل ، بعد أن ملأ البك ولم يعد
يوصلها الى البيت أو يعطيها مواعيد لثقله بالليل كما كان
يفعل ٠٠ وعادت فريدة منكسرة الى مكانها على الآلة الكاتبة
بجوار السكرتير ٠٠ وتباعد عنها السكرتير إياماً قليلة ، ثم
عاد يبتها غرامه ، فعادت اليها ثقته بنفسها وبكت على صدره
وهي تحكي له قصتها مع البك بالعكس ٠٠ قالت إن البك أحبها
وظل يفرها لكتها لم تحبه لأنه سمين وله كرش ثم تركها بعد
أن يئس منها ٠٠ وأحسّت بالزهو وهي تحكي ولو بالكذب عن
انتصارها على البك وزاد زهوها حينما لمحت معالم التصديق
في عيني السكرتير ٠٠

وعرفت أن السكرتير لن يتزوجها لأنه متزوج ولهذا لم تلتزم
معه العفة والادب، وتعتدت أن تكون مستهترة، فهي تقبله مرة
وتهجره مرة ٠٠ وتحكي له بالكذب عن مغامراتها مع رجال
آخرين لتعذبه وتهزأ من رجولته ٠٠ وهي في الواقع تتمسك
على الخلاعة وتجرب مع الحياة المستهترة بلا خلق ٠٠ ولعل
تجربتها السافرة هذه هي التي أفهمتها سر الرجل لأنها كانت
تقلبه وتفتش فيه بجرأة عن نقط ضعفه ٠٠ لذلك حينما سكن
الى جوارهم ذلك الشات الطيب الذي تخرج من معهد التربية

واشتغل مدرسا استطاعت فريدة في الدقائق التي تمكثها في
البيت أن تجذب عينيها اليها ثم تجذبه كله بعد أيام ليطلب
يدها من أمها ٠٠ وقبلت فريدة الزواج بلا تفكير ٠٠ لأنه شيء
جديد لم يحدث لها من قبل ٠ فقد عاشت مع البك في شقته

أياماً طويلة لكنها لم تعتبر ذلك زوجاً ٠٠ لأنها تريد أن يعرف الناس أنها تزوجت ٠٠ أن يصبح لها زوج وبيت وأولاد ٠ أن يكون لها رجل تضع يدها في يده في ضوء النهار كالنساء الشرفاء، لا أن تتلصص معه في الظلام كالشبهوهين ٠

وحينما جلس الشاب الطيب أمامها ، وأخذ يدها في يده أغرورقت عينها بالدموع ٠٠٠ دموع الحب ٠٠ وأحسنت لأول وهو يردد وراء الشيخ العجوز : « لقد قبلتك زوجتي يا فريدة » مرة في حياتها انها تحب هذا الشاب الطيب الذي يعلن زواجها أمام كل الناس بصوت عال ٠٠

ودخلت معه بيته لأول مرة وهي نحس أنها ستبذل حياتها ارضاء لهذا الزوج الطيب وان تخلص له كل الإخلاص ٠ لكنها لم تستطع ٠٠ اذ شعرت بعد أيام قليلة أن أمنيتها تحققت وان الناس عرفوا انها تزوجت ونادوها بالعروسة ثم كفوا عن النداء ٠٠ وانتهى الحماس الذي كانت تحس به نحو هذه الحياة الجديدة ، ولم يعد عندها للزواج معنى بعد هذا سوى ذلك الزوج البارد الذي يتحرك في البيت بشبهه البطي البليد فيثير في نفسها شعوراً بالكآبة كأنها تعيش في قبر وتدفن معها حيوانيتها وذكاءها وجاذبيتها ٠٠ حينما كان يجلس زوجها معها ، يتكلم ويرى لسانه وهو يخرج ويدخل ، ولعابه الأبيض وهو يتجمع عند زاويتي فمه تشمئز من حديثه وغبائه وتثور فيها نيران التمرد على هذا السيد السخيف وتتأجج رغبتها في الانطلاق ٠٠ في الحربة ٠٠ في الاستهتار ٠ في أن تعيش كل لحظات يومها وليلها ٠٠ أن تنشر جاذبيتها أمام الرجال وتستمتع بما تراه في عيونهم من رغبة ولهفة ٠٠

وصممت على أن تطلق هذه الحياة الراكدة ، فهي لا تؤمن بالزواج أيّاً كان ، ولا تحتل أن تباع انوثتها ومواهبها لرجل مقابل لا شيء سوى قيود واحتكاك والتزامات هي في غنى

عنها ..

وعادت فريدة بحقيبة ملابسها الى بيتها .. وقابلتها أمها
بالموع .. فالأم لا يفجعها شيء مثل طلاق بنت من بناتها ..
ومسحت لأمها دموعها وهي تبتسم ، وقالت لها إنها هي التي
طلقت زوجها لأنه أناني أراد أن يستولي على كل أيراتها ولا
يترك شيئاً لأسرتها ..

وتنقست فريدة بهدوء كأنها أوقعت عصفورين بحجر واحد
.. وجفقت أمها دموعها وهي تدعو على الرجل الأناني المخادع
وتقبل ابنتها في حب وامتنان وهي تقول : ربنا يسعدك يا بنتي
ويعوضك .. طول عمرك بتضحى علشاننا ..

وعادت فريدة الى حياتها الأولى .. عادت رب البيت الذي
ينفق ويدبر ويدخل ويخرج بلا حساب .. وعادت اليها ثقمتها
بنفسها وشعورها بأهمية وجودها .. وعادت حرة لا يمتلكها
رجل .. وتمتلك رجالاً كثيرين يحبونها ولا تحبهم .. وكلما
احبوها لم تحبهم وكلما كرهتهم احبوها .. لكنها تعرف كيف
تجعلهم يضعون رءوسهم على حجرها ويتنفسون بهدوء ..
وأصبحت الحياة تحت قدميها .. كل شيء فيها موجود عندها في
العزبة أو في الثلاثرة أو في الدولاب ، أو في جيب رجل ..
ليس في الحياة مستحيلات عندها ..

ورغم كل هذا لم تكن نمرة دائماً ... كان لها قلب ينبض
من تحت الغبار الذي تراكم عليه .. وحينما تحسن بقلبها وهو
ينبض تتطلع حولها كالشدهوة وتموت الابتسامة الدائمة على
شفتيها ، وتضع يدها على قلبها وهي ترى الحياة أمامها ضخمة
كالعلاق وهي تحت أقدامه لا تستطيع أن تلمسه .. لكنها
تحاول أن ترى شيئاً .. فتتنظر من بين أقدامه كالشاردة الى
نفسها .. الى حقيقتها .. فتحدّها ، لا شيء

مينا كرون نافره

جلست على المفعد الحشبي المؤلم واسندت ذراعي التي تحمل رأسي على مكتبي ، واخذت أفكر رغم أنني ٠٠ ورغم أنني عاهدت نفسي على ألا أفكر ، وأن أشتغل في هذه الوظيفة كما يشتغل الناس ، لكنني في هذه اللحظة شعرت بالعجز الكامل عن مقاومة التفكير ، فالأشياء التي تعيش داخل رأسي أحس لها دبيباً وأسمع لها همساً عالياً يكاد يفلق رأسي نصفين ٠٠

واستسلمت في ضعف لأن أفكر ، فوضعت الملفّ الغليظ في درج المكتب وأغلقت القلم الحبر ووضعت في حقيبتي ، وأعطيت ظهري للرجل الذي يجلس بالقرب مني لأحجب عن عيني رأسي الغليظ ولأبعد أذني عن صوته الأجاج ،

واخذت أفكاري تتقاذفني بسرعة هائلة وأنا بينها أدور وألف كاني داخل تروس ساقية تدور وتزن وتزن ٠٠

وسمعت الأشياء التي تعيش في رأسي تدب من فوق وتقول :
 « ما هذا الذي أعمله ؟ هل هذا هو طموحي ؟ هل هذه هي آمالي ؟
 لا شيء ! واحدة من الناس ٠٠ من الملايين ٠٠ أجلس على هذا

المكتب الخشبي ست ساعات متواصلة أقوم فيها لأتمتّى مرّة أو
مرتين لالين مفاصلي ثم أجلس ثانية ٠٠ لو متّ هذه اللحظة فلن
يفقد العالم شيئاً يذكر، بل لعلّه سيزيد مقعداً خالياً للآلاف
المنتظرين على الأبواب يطلبون الشغل ٠٠ لن يشعر العالم بفقدي
أبداً ٠٠ ربما سطر أو سطران في ذيل جريدة لا يقرأهما الا بعض
الموظفين المحالين الى المعاش ٠

وأحسست بوجوم يجثم على صدري فأغلقت درج مكتبي
بالمفتاح وأخذت حقيبتي وخرجت الى الشارع ٠٠ وكانت السماء
تمطر رذاذاً خفيفاً وهواء الشتاء يهبّ بارداً يلفح وجهي ويصيب
جسمي برعدة تصطك لها أسناني ٠٠ ووضعت يدي في جيبي
لأدفئهما وسرت أنظر الى العربات الفاخرة وهي تجري ومن داخلها
رجال ونساء لا يشعرون بالبرد وينظرون اليّ من وراء الزجاج
المحكم في تعال وكبرياء بلا إشفاق على حالي وأنا أمارع المطر
الذي بدأ ينهمر ثقيلًا على رأسي فيفسد تسريحة شعري التي
دفعتم فيها بالامس ثلاثين قرشاً اقتطعها بمشقة من ميزانيسة
الأكل ٠٠

وضعت حقيبتي على رأسي ونظرت شرراً الى امرأة تجلس
كملكة في عربة طويلة جداً ٠٠ وقلت لنفسى إنها عربة زوجها
بلا شك تأخذها منه في الوقت الذي يعمل فيه لتدفع بها الشوارع
من أجل لا شيء ٠٠ إن شكلها لا يدلّ على أنها تشتغل شيئاً وإنما
أحد يشتغل من أجلها ٠٠ لا يمكن لهذه المرأة أن تصحو من النوم
قبل الحادية عشرة صباحاً ٠٠ أيّ لذة تلك التي تجدها في الراحة
والكسل ٠

ومضيت أفكر ٠٠ وخطرت لي فكرة غريبة ٠٠ ساستقيل من
عملي وأبحث لي عن زوج يشتغل من أجلي وأنام حتى العاشرة
صباحاً ٠٠ لقد تعبتم من القيام مبكرة ٠٠ ماجدوى كل هذا العناء

وخلعت ملابسي ولبست ملابس النوم ودخلت السرير دون أن
أكل ، إن نفسي مصدودة بعد أن انتشيت من بريق المجد والجاه
والشهرة التي رسمتها لحياتي المقبلة • وغلبني النوم فنمت ••

ولم أدر كم مضي من الوقت ، لكنني صسحت على صوت طرق
شديد على باب شقني ، فقامت مدعورة لأرى من الطارق ، ورايت
عم محمد البواب يقف لاهثاً ويقول لي في استعطاف : « والنبي
يادكتور عابدة الست فيمى تعبانة جوى وطالبة حضرتك دلوقت »

ووضعت على كتفي روبا صوفياً ، وأخذت حقيتي وصعدت
مع البواب الى شقة فيفى •• وهناك على السرير الناعم الذي يبرق
بالحرير من فوق ومن تحت رأيتها •• فيفى •• التي سحرت لبي
بعربتها وملابسها ومالها تنام امامي وحول عينيها هالتان سوداوان ،
وعلى وجهها صفرة بائسة •• كانت ترتجف وتثني •• ولما رأني
قالت في استعطاف : « أرجوك يادكتور أنا عيانة خالص •
عندى صداع وحرارة وجسمي كله بيرتعش ، أرجوك تكشسي
على »

وجلست بجوارها ، وامسكت يدها لأعد نبضها •• ومضت
لحظة صمت رهيبية كنت فيها فيفى أنفاسها ، ووقف البواب
خلفي ، وأحسست كأنه من رهبة الموقف كتم هو الآخر أنفاسه
ووقف في خشوع وإجلال ••

ومددت يدي في ثقة ووضعت السماع في أذني •• ونظر
البواب الى الآلة الصغيرة في خشوع كأنه ينظر الى شيء سحري
إلهي فوق قدرته البشرية ، ثم استدار وأعطانا ظهره متأدباً ••

وتركت فيفي صدرها تحت سماعتي في استسلام ، ونظرت
الي في ثقة وإجلال كأنني قادرة على منحها الشفاء في اللحظة التي
أسمع فيها دقات قلبها •• وأتممت الفحص ، وكتبت لها العلاج
ونصحتها بما يجب أن تتبعه ••

ورأيت فيفي تبسّم في راحة وأنا أضجع أدواتي في حقيبتى
وأخرجت من تحت وسادتها كيساً ومدّت لي يدها بجنيهين...
لكن تراجعمت في إباء وكبرياء وقلت لها بأسمة : « لا مش
معقول ، ده احنا جيران »
نظرائي البوّاب مندهشاً ثم أسرع فحمل عني حقيبتى وسار
خلفي في خشوع .
وعند باب شقتى أخذت منه الحقيبة ثم أغلقت بابى .. وذهبت
الى فراشي لا أكمل نومي ، وابتسمت لنفسي في سعادة وأنا أحس
بدفء السرير .. ونبت أحلم بورقتين ناعمتين كلّ منهما تساوي
جنيهاً .

قصة حياة طيبة

كُتبت الطيبة « س » في يومياتها تقول :
التقطت نظراتي المرمقة ، نظراتها الفزعة القلقة في استنجاها
المكتوم ، وفي حيلاتها الهائلة ، وكأنها بعينيها الصغيرتين الزرقاوين
وهما تنفتحان وجهي وتبحثان في أعماقي عن شيء من الرحمة
والإشفاق . . .

وأحسست أن أرهاق جسمي من كثرة العمل بدأ يتبدد سريعاً
وأن نشاطاً جديداً اجتاحت أعماقي . . . وكأنما أحسست نفسي أنها
على وشك أن تعطي شيئاً من ذاتها ، أو أن تمنح شيئاً لصاحبة
هاتين العينين المستغيثتين ، فأخذت تشحن نفسها بطاقة جديدة
استعداداً للبدل . . .

وجلست الفتاة المتهالكة أمامي ونظراتها متمسكة بوجهي
لاتتحول عنه مما جعلني لا أتنبّه للرجل الطويل العريض الواقف
بجوارها . . . والذي فطن إلى أنني لم أره فأراد أن يشعرني بوجوده
فقال بصوت له نبرة مثقفة لم تهذب من غلظته وخشونته :

- ارجوك يادكتور إن تكشفني على أختي . أريد أن اطمئن
عليها وذلك لأننا سنزوجهما في الأسبوع القادم لابن عمها . . .

ولا أدري من أين جاءتها الشجاعة فسمعتها تقاطعه قائلة:

- أنا لا أحبه ! .. ولا أريد أن أتزوجه !

ونظرت إليّ في استعطاف :

- لا أحبه يادكتورة !

وأشار لها الأخ في شدة أن تصمت وقال محتدّاً .

- إنها لا تريد أن تتزوج لسبب آخر يا دكتورة .. أظنك تفهمين . أرجوك الكشف عليها لتطلعيني على الحقيقة ..

وعادت العينان الصغيرتان الزرقاوان تفزعان في قلق واستنجاد مكتوم .. وأخذت أنظر في أعماقها لعلّ أعتدي إلى خيوط القصة لكنني لم أجد فيهما إلا فزعا وقلقا ، وأسترحاماً .. وكنت على وشك أن أقذف في وجه الأخ برأيي .. أن أقول له :

- متأسفة ياسيدي .. أنا لا أستطيع الكشف عليها من أجل هذا الغرض .. إنّ الطبّ لم يعمل من أجل هذا .. ثم إنّ هذه المسألة شيء يخصّها وحدها ولا داعي لك كاخ أولي كطبيبة أن تتدخل .

وكانما أحسّنت الفتاة بما براودني فازدادت بطراتها تشبّثاً بي وكأنها تقول لي :

- أرجوك .. لا تتخَيّ عني .. سيذهب بي إلى طبيب آخر

ووقفت وقد عزمّت على أمر . وقلت بلهجة الطبيب حينما يقرّر أمراً ، وليس هناك من قوّة تستطيع أن تقف أمام الطبيب حينما يحزم في نفسه أمراً :

- تسمح تجلس في الخارج قليلا حتى انتهى من الكشف

وأصبحت أنا والفتاة وحدنا .. ونظرت إليها .. وشجّعتهما

نظراتي المشفقة الرحيمة على أن تنظر إليّ في اطمئنان ، قالت في
استعطاف :

- أرجوك يادكتورة .. ارحميني من هذا الاخ، سيقتلني !
واقتربت منها قليلا فرايتها تنظر الى يدي في فزع وتقول :
- هل ستكشفين عليّ ؟ أرجوك .. لا أستطيع ! لا أستطيع !
ووضعت يدي في جيبى المعطف الأبيض لاطمئنها وقلت لها
وانا اجلس الى جوارها :

- لا تخافي .. لن اكشف عليك .. ولكن قولي لي الحقيقة .
وسوف تكون سرّاً ، لن ابوح به لاحد أبداً .
قالت :

- لا احبه يادكتورة .. ولا اريد أن اتزوجه ..
ونظرت اليها وابتمت ابتسامة ذات معنى .. فقالت :
- ولا احبّ رجلاً آخر ..
واحسست أن الفتاة لاتقول الحقيقة ..
ووضعت رأسي بين يدي وفكرت .. إنني لن اكشف على الفتاة
لان هذا ليس من حقّي الا اذا طلبت مني ذلك .. وهي لم تطلب
بل إنها ترفض !

واخذت انظر الى ملامح الفتاة لمّلي انزع الحقيقة منها ، ولكنني
سرعان ماتراجعت وقلت لها :

- حسناً يافتاتي الصغيرة .. ساخبر اخاك أنّني لا شان لي
بهذا الموضوع
ورأيت الفتاة تقبل 'نحوي في دعر واستعطاف :

- لا .. لا .. أرجوك سيذهب بي الى طبيب آخر قد يكون
مظاً .. قولي له إنك كشفت عليّ .. وإنني فتاة شريفة .. هذا
شيء يسير عليك يادكتورة .. مجرد كلمة تتفوهين بها تنقلين

بها حياتي ٠٠ إن أخي رجل قاسي ، إنه سيقتلني ! ارحميني
يادكتورة !

سأقول لك الحقيقة ٠٠ انني أحب رجلا آخر ٠٠ وهو يحبني
وقد اتفقنا على الزواج في الشهر القادم ٠٠ أقسم لك إنه لم يحدث
بيننا شيء مخلّ بشرفي !

ونظرت الى العينين الزرقاوين المسترحمتين وكأنما تؤكدان لي
أنها على حق ٠٠
وابتسمت لها وكأنني أؤكد لها أنها على حق ٠٠ ولكن
ولكن ماذا ؟

سألت نفسي ٠٠ وسألت ضميري ٠٠ وراجعت كلمات القسم
الذي رددته في أول يوم مارست فيه عملي ٠٠ واستعدت في
ذاكرتي قوانين الطب ٠٠

ولم أشعر إلا وأنا أتجه الى الباب فافتحه ، وطلبت من أخيها
الدخول ، وقلت له في ثبات وقوة :
- ان أختك فتاة شريفة !

قلتها وأنا أؤمن بعقلي ووجداني وانسانيتي أنها شريفة ٠٠ إن
الطب يستطيع فقط أن يفرق بين المرض وغير المرض ٠٠ ولكن
لايستطيع أبدا أن يفرق بين الشرف وغير الشرف ٠٠
وارتسمت على ملامح الأخ الفجة ابتسامة لم تكسبها الثقافة
من الهدوء المعقول ٠ ابتسامة عريضة ٠٠ كأنه بهذه الكلمات قد
اطمأن على شرفه أو استردّه ٠٠

وقلت له وقد انفعلت بالنعصور الجديد :
- أظن أنه من اللائق أن تعتذر لأختك عن شكك فيها ٠٠

واعتذر لها وهو بنظر إليها في سعادة ريفية مساذحة ثم
أخذها وخرج ٠٠

ووضعت رأسي على كتفي .. أفكار شتى تعصف برأسي ..
ولم أشعر بيدي وهي تزحف ال درج المكتب وتسحب منه
ورقة بيضاء وقلمًا .. وكتبت ورأسي مازال ثقيلا .. كتبت
قسماً جديداً وهو :

« أقسم أن تكون إنسانيتي وضميري هما قانوني في عملي
ولنأ .. »
ووضعت القلم .. وأحسست براحة لم أشعر بها منذ فترة
طويلة .

من أجل من؟

دقّ جرس التليفون بجوار رأسي حادّاً صارخاً ، ملحقاً ،
فتقلّبت في فراشي أبعد رأسي عنه .. أهرب منه ، ولكنه ظلّ
يهدر في سكون الليل يمزّق من حولي ستائر النوم المخترقة
اللذيذة .. بلا حقني كلما هربت منه .. وامتدّت يدي بلا إرادة ،
ورفعت المسامع إلى أذني وقلت وأنا أثنأب :

- الو ...

وجاءتني حشرة خشنّة تبينّت فيها صوت رجل يقول :

- الدكتور موجودة .

- أيوه .

- أربجوك . اسمعيني . أنا مريض .

- أين تسكن ؟

- شارع الجيزة رقم كذا ٠٠

- حاضر ، سأتى ، اليك حالا .

قلت الجملة الاخيرة بلا تفكير ، وخلعت ملابس النوم ، وارتديت ملابس الخروج وأخذت حقيبتي المعدة ، وخرجت الى الشارع ٠٠ وركبت سيارتى الصغيرة واتجهت الى الجيزة ٠٠ وكنا فى فبراير والجو قارس البرد ، والليل شديد الظلمة بلا قمر ، ولا اكاد ارى طريقى إلا من خلال أنوار المصابيح المتناثرة بعضها منير ، ومعظمها مطلقاً لا أدري لم ٠٠٠

وضغطت بقدمى لأطلق العنان للسيارة فانطلقت بى كالطائرة ووجدتني بعد دقائق قليلة فى شارع الجيزة ٠٠ ووقفت فى عرض الشارع لاهثة ووضعت يدي على قلبي فى أسى ٠٠ آه ٠٠٠ لقد نسيت رقم بيت المريض ٠٠٠ وأخذت أستجمع ذاكرتى وأركزها فى الكلمات التى سمعتها من المريض لكى اذكر الرقم الذى قاله لى دون جدوى ٠٠ كأنما أصبح عقلي مادة صلبة من الحجر لا تعي شيئاً ٠٠٠

وسرت بالعربة يائسة تائهة ٠٠٠ أتخيل الرجل المريض وهو ينتظرني بين لحظة وأخرى وأنا لا أجيء ، ويفترض أننى تلقيت استغاثته ثم استسلمت للنوم ، ولا يعلم أننى ربما أمرت من أمام بيته دون أن أعلم ٠٠

وفجأة من بين يأسى وحزني لمحت نوراً خافتاً في إحدى النوافذ فخفق قلبي من الفرح والأمل وقلت لنفسى : هو المريض المريض ينتظرني ! من غيره يستطيع أن يسهر الى هذا الوقت من الليل ؟

ونظرت الى ساعتى كانت الثالثة صباحاً فانطلقت بعربتى تجاه النور ، وأوقفتها أمام البيت ، وصعدت السلم ، ووضعت

يدي على الجرس ، وقبل ان أضغط على الجرس أحسست بهاتف من أعماقي يقول لى وماذا لو لم يكن بيت المريض ؟ .. وخفت من المغامرة ، وهممت بأن أعود أدرجى ، لكننى تذكرت صوت المريض الضعيف الخائر ، وتخيلته جالساً ينتظرني ، فاندفعت

الى الجرس وضغطت عليه بكل قوتي .. وسمعت صوت أقدام تقترب من الباب ، ورأيت « الشراعة » تفتح ويطل منها رأس امرأة مشعث .. ونظرت إلى المرأة فى دهشة كبيرة فقلت لها على الفور : متأسفة .. هل يسكن هنا المريض الذى ..

وقاطعتنى المرأة فى صوت حاد مستنكر : « مريض !؟ » ورشقتنى بنظرة ارتياب بالغة فاعتذرت لها بسرعة ، وهرولت الى السلم أجري ، وقد أحسست أنها ستجري خلفي وتمسكنى من ملابسى ..

وركبت عربتي وعدت الى شارع الهرم أسير على مهل وفى قلبى ثقل كبير .. ووصلت البيت ، ووضعت مفتاح الشقة فى الباب ودخلت ، فاذا بى أرى زوجي واقفاً فى الصالة ولما رأيته أقبل عليّ وسألنى قائلاً : « أين كنت ، لقد استيقظت بالصدفة فلم أجذك .. أين كنت ؟ »

وحكى له القصة من بدايتها ، منذ سمعت المحادثة النليعونية حتى ضغطت على جرس البيت المجهول ، ولاحظت أن أنفاسه تعلو وتهبط ورأيتة ينظر إليّ فى دهشة وفزع وسألنى :
- ومن الذى فتح الباب ؟ رجل أم امرأة ؟ ..

ونظرت اليه فى أسى وقلت :

- لم يكن هو بيت المريض ..
لكنه لم يأت به لكلامى وأعاد سؤاله قائلاً :
- رجل أم امرأة ؟

قلت وأنا شاردة :

- امرأة •

فهدأت ملامح وجهه وعاد ليواصل في راحة بال واطمئنان •
وجلس في الصلاة أفكر ... أشياء كثيرة ترتطم براسي
وتسبب لي المأ • ولم أدر إلا ونور الصباح يملأ المكان وأنا اجلس
وقد غلبتني سنة من النوم تشبه اليقظة ...

وانقضت على تلك الليلة أيام كثيرة خلّت أنني نسيته • • •
حتى كان يوم كنت اجلس في عبادتي وقال لي التمرجي إن رجلاً
يريد مقابلتي • • • ودخل الرجل ، ورايته ينظر إلي متعصفا ثم
قال :

- حضرتك الدكتور سعاد •

- أيوه •

فمصص شفتيه وقلبيهما وسكت قليلا ثم قال :

- حضراتكم عاملين دكائرة ؟

ودهشت لهذا الهجوم المفاجئ وقلت في قرع :

- ماذا تقول ؟

فقال في ثورة :

- أنا كنت علي وشك الموت ، ولا دكتور واحد رضى يسعفني ،
وفضلت للصبح لغاية ماجاني دكتور • • لكن بعد ايه ؟ حتى انت
يادكتور قلت لي انك جاية وكذبت علي ؟

وترددت قليلا في أن أحكي له القصة ثم رويت له ما حدث .
لكنه لم يصدقني وخرج وهو يقول :

- ١٢٦ -

- طبعاً ، كل الدكاترة يقولوا كده ، -

وجلست ، وضعت رأسي على كفي ، وفي قلبي ألم يعتصره بلا
رحمة أو شفقة ٠٠٠ وقلت لنفسى فى أسى ما من أحد عرف
الحقيقة ٠ لقد ارتابت المرأة التي فتحت لى الباب فى أمري ٠٠
وارتاب زوجي فى الشخص الذى كان بالبيت المجهول ، وارتاب
المريض فى أنني خرجت لاسعفه ٠٠٠ وأنا؟! وأنا أعلم أنني
فعلت ذلك بكل وعي وكامل ارادتي ٠٠٠ ولكن ما الفائدة وما من
أحد غيري يعلم ؟

وأحسست بدموع ساخنة تسيل على وجهي ٠٠ ولم أدر ما سببها
٠٠ هل كنت أبكي من أجل الناس ؟ أم كنت أبكي من أجل
نفسي ؟؟

الفهرس

ص	
٥	حنان قليل
١٣	كرامة
٢١	الطريق
٢٩	الكوافير سوسو
٣٥	لن تجديه يا ليلي
٤٤	ليست عذراء
٥١	هيتروفس ... هيتروفس
٥٧	الشيء الصعب
٦٧	مجرد صورة
٧٥	الدوسيه الضائع
٨١	ومات الحب
٨٧	سوسن
٩٥	فراغ
١٠٣	لا شيء
١١١	حينما اكون تافهة
١١٧	قصة من حياة طيبة
١٢٣	من أجل من؟

مؤسسة جواد لطيف للتصوير



مساكن: ٨٣٨١٥٧ - ٨٣٧٧٠٢ - بيروت، لبنان

مؤلفات الدكتورة نوال السعداوي من منشورات دار الآداب

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الأرض
- امرأة عند نقطة الصفر
- أغنية الأطفال الدائرية
- موت معالي الوزير سابقاً
- الخيط وعين الحياة
- الغائب
- كانت هي الأضعف
- مذكرات طبيبة
- تعلمت الحب
- حنان قليل
- لحظة صدق